

براهمة بلوزاع



نظرة على الجزائر

بين 1947 و1962

من خلال كتابات الجزائريين في الصحافة التونسية
(الزهرة، الأسبوع، الصباح: نموذج)



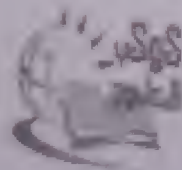
براهمة بلوزاع

نظرة على الجزائر

بين 1947 و1962 من خلال كتابات

الجزائريين في الصحافة التونسية

(الزهرة، الأسبوع، الصباح: نموذجاً)



بسم الله الرحمن الرحيم

المسلسلة :
الكتاب : نظرة على الجزائر بين 1947 و 1962 من خلال كتابات الجزائريين في الصحافة التونسية

المؤلف : براهيم بلوزاع

الموضوع : تاريخ

رقم الإيداع القانوني : 2012-3054

رسمي : 0-23-888-9947-978

الناشر : دار كوكب العلوم

عدد الصفحات : 224

سنة الطبع : 2015

بند الطبعاعة : الجزائر

الطبعة : الأولى

دار كوكب العلوم

جميع الحقوق محفوظة



جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز نسخ أو استعمل أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية ، بما في ذلك الترخيف الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها دون إذن خطي

المقدمة:

كانت تونس منذ أزمنة طويلة بوابة الجزائر نحو المشرق العربي فكانت كل التأثيرات تختمر في تونس قبل أن تصل للجزائر، وهي أيضا المعبر الحتمي لغزو الجزائر بالنسبة للقادمين من المشرق.

لم تنقطع الاتصالات بين الجزائر وتونس في يوم من الأيام، ليتهاثر ويؤثر أحد البلدين في الآخر سواء بالإيجاب أو السلب. وازدادت هذه العلاقات بعد ابتلاء الجارين بداء الاستعمار وإن كان في لباسين مختلفين. لقد وجد الجزائريون ملاذا آمنا في تونس طيلة فترة الاحتلال الفرنسي، فقامت بالواجب نحو إخوانها المرزوقين في أموالهم وأرزاقهم وأملاكهم بل وفي كل عزيز عليهم ليعيشوا هناك في كنفها. وقد ردها الجزائريون الجميل بالمشاركة معها في مكافحة الاستعمار، فتداخل الكفاح وأي البلدين كان أسرع للتخلص من نير الاستعمار، عاد ذلك بالفائدة على البلد الآخر.

تكشفت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى هجرات جديدة إلى تونس، ليست كسابقتها، هجرة نهائية، بل هي هجرة مؤقتة لطلب العلم بجامع الزيتونة ثم العودة إلى الجزائر للمشاركة في نهضتها بقيادة الشيخ عبد الحميد ابن باديس.

يكتشف الجزائريون في تونس بأنها توفر لهم سلاحا خطيرا عليهم استعماله في محاربة الاستعمار بطريقة أو بأخرى ألا وهو سلاح الصحافة، فقد كانت القيود الموجودة في تونس أخف من تلك الموجودة في الجزائر.

وأصدر جريدة عربية في الجزائر مغامرة محكوم عليها بالفشل مسبقاً¹، فكتب الجزائريون في الصحافة التونسية، وكان لهم وعليهم أن يكتبوا ليسمعوا صوتهم.

لقد حفظت لنا الصحافة التونسية كنزاً ثميناً، وكما مهولاً من المعلومات عن الجزائر بأقلام أبنائها، خلافاً لما كتبه غيرهم عنها.

لقد كانت النية متجهة في البداية إلى دراسة هذه الكتابات عامة ابتداء من عام 1945، ومن خلال كل الصحف التونسية. إلا أنه بمجرد بداية الخوض في هذا الموضوع تبين لنا استحالة ذلك من عائقين قاتلين، أولهما مادي يتمثل في نقص ورق الطباعة وثانيهما إداري ممثلاً في الرقابة، فورق الصحف كان يخضع للتقنين والحصص الموجهة للصحف التونسية قليلة جداً، حدث بأغلب الصحف أن تصدر بورقة واحدة، لا تكفي للمادة التي بحوزة إدارة الصحيفة مما يجعل مراسلات القراء هي الضحية عند المفاضلة لأولويات النشر، وحتى هذه الوريقة فعل فيها مقص الرقابة فعلته، وهذا النص لعمر ابن قفصبة² شاهد على الاعتداء الفاضح على حرية التعبير يقول: ... كانت الصحافة التونسية تقاسي أشد أنواع الضغط [خاصة بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية]، فهي فضلاً عما تتحمله من تشذيب الرقيب بقلمه الأحمر تجبر على أن تسد ذلك الفراغ الذي يحدته وتسود ذلك البياض الذي يتركه بصفحات الجريدة بمواضع أخرى تمر على الرقابة مرة ثانية،

¹ قس الجزائر، كماذا؟، الزهرة، 01 أبريل 1951، ص 04.

² عمر ابن قفصبة، أضواء على الصحافة التونسية، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، 1972، ص 43-44.

ويمكن أن تحذف منها وتشذب ثم يكون الصحفي مجبوراً على سد الفراغ الجديد إلى أن وقع إضراب عام 1946 لمدة شهر انتهى بأن برزت الصحف العربية من جديد وبها من المناظر بين الأبيض الناصع وبين السطور المصطفة ما يضحك الشكلى ويدعو للعجب والغرابة من عقل وتفكير تلك الرقابة... أما إذا كان المقال يخص الجزائر فإن الرقيب يستنفر كل قواه لمنع أي إشارة تجرح الوجود الفرنسي بالجزائر. ووصل به الأمر إلى أن يعمل مقصه في أحاديث لمصالي الحاج مترجمة عن جرائد فرنسية، فرمما ظهر المقال بجزء من مقدمته فقط وحتى جزء من عنوانه، لذا لم يكن متوقفاً أن نجد شيئاً ذو بال يفيدنا في تأليفنا.

استمر الأمر على حاله إلى غاية مجيء المقيم العام جون مونص Jean MONS سنة 1947، بقصد التخفيف من الجو المشحون الذي كانت تعيش على وقعه تونس. وكان رفع الرقابة عن الصحف، من بين الإجراءات التي قوبلت باستحسان كبير، بدأ بعدها الجزائريون يعيدون صلاتهم القوية بالصحافة التونسية بعد الانقطاع القسري فترة الحرب وما تلاها.

- ثانياً لقد اقتصرت على صحف ثلاث هي (الزهرة، الأسبوع، الصباح) وذلك راجع إلى أن حجم الأرشيف الصحفي كبير جداً فيه كمية ضخمة من الكتابات الجزائرية، الشيء الذي يتجاوز الجهود الفردية للبحث فيها كما أن الوقت المخصص لنا لا يكفي بالاطلاع على كل هذه الكتابات،

وتزيد طريقة الاخراج الصحفي في صعوبة البحث، حيث على الباحث أن يتوقع أن يجد أي شيء يهمه في أي ركن من الصحيفة، وربما في مكان لا يتعدى بضعة أسطر بين قسم الاعلانات أو اخبار الجهات مثلا، مما يجعل

عملية التقدم في البحث بطيئة جدا هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لو استعملنا كل هذه الكتابات لتضخم هذا العمل إلى أضعاف مضاعفة من حجمه الحالي وتركها لأعمال لاحقة إن شاء الله.

وقد اعتمدنا على هذه الصحف الثلاث كعينة من الصحف التونسية التي فتحت صفحاتها للأقلام الجزائرية، وإن كان التركيز كبير على الأسبوع والصبح نظرا للاهتمام الذي لقيته لدى الجزائريين وللهجة التي كانت تميز خطاباتها: الأسبوع في المرحلة الأولى ثم الصباح في المرحلة الثانية.

الثابت أنه لا يمكن تجاوز جريدة الصباح إذا تعلق الأمر بدراسة تاريخ الثورة الجزائرية خصوصا، لأنها «... تكاد تكون جزائرية في موضوعاتها واتجاهاتها باعتبارها جريدة حرة ومعارضة في نفس الوقت، وتتابع قضية الجزائر وأحداث ثورتها بشكل مكثف ومتواصل...»¹ وقد ذكر لي الدكتور محمد الميلي أن الرئيس الحبيب بورقيبة مرة هاتف رئيس تحريرها الهادي العبيدي ليسأله إن كانت الصباح جريدة تونسية أم جزائرية تصدر بتونس². جرة جريدة الصباح كلفها حَجْر. دخولها الجزائر والمغرب - وهي التي تعتبر نفسها الناطقة باسم المغرب العربي - من جوان 1951 إلى جوان 1955 ثم من نوفمبر 1955 إلى غاية الاستقلال سنة 1962.

اخترنا الصحافة الناطقة بالعربية لأن أغلب من تصدى للكتابة من طلبة الزيتونة وهم معربون كما أنه لم يكن هناك من يهمه أن يكتب في الصحافة

¹ مراسلة الدكتور يحيى بو عزيز مؤرخة 24 مارس 1998.

² محادثة مع الدكتور محمد الميلي بتونس بتاريخ 25 نوفمبر 1997.

الصادرة بالفرنسية لأن هدفنا - يقول محمد الأخضر السائحي - هو طلب مساندة الشعب التونسي، وهو لا يطالع بالفرنسية...¹

يبدو أن أسلوب التواصل مع الصحافة كان عن طريق البريد² إلا البعض من عمل صحفياً أو في إدارة الصحف خصوصاً الصباح ونذكر منهم الميلي، وطار، شريط، وبن هدوقة أثناء الثورة - هذه الطريقة تسببت في ضياع - دون شك - إنتاج هام كان سيعطينا صورة أوضح عن الكتابة الجزائرية.

لم نجد دراسات ذات بال عن هذا الموضوع إلا كتب السيد محمد الصالح الجابري الثلاث عن الأدب الجزائري بين 1900 و 1962 والملاحظ في هذه الدراسات أنه ركز على الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية.

قسمنا هذا الكتاب إلى بايين في كل باب ثلاثة فصول، حصرنا الباب الأول في الفترة الواقعة بين 1947 و 1956، حاولنا فيه ترصد أهم انشغالات الجزائريين فكان الاهتمام بالجانب السياسي والاجتماعي والعلمي

فتبعنا هذه الظواهر الثلاث بالدراسة والتحليل لنعيد تشكيل صورة تقريبية للجزائر في تلك الفترة الهامة من تاريخها.

¹ مراسلة الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السائحي مؤرخة في 19 مارس 1999.

² مراسلة الدكتور أبو القاسم سعد الله مؤرخة في 12 أبريل 1998.

فاهتمنا في الجانب السياسي، بالوضعية السياسية التي كانت تعيشها الجزائر خاصة مع المعطى الجديد المتمثل في دستور 1947 والمجلس الجزائري الشهير المنبثق عنه والانتخابات التي شكلته، ثم تحدثنا عن قضية الوحدة داخليا وخارجيا، وأخيرا في قضية بني ميزاب ومشكلة مشاركتهم في المجلس الجزائري.

أما في الجانب الاجتماعي، فتوقفت طويلا عند قضية المرأة، تعليمها، زواجها، عنوستها والمشاكل المرتبطة بها، وأخيرا تكلمنا عن حرية المرأة، هذه القضية التي ما زالت تشغل الرأي العام إلى اليوم.

أما في الجانب العلمي، فتحدثنا عن التعليم العربي والظروف المحيطة به، ثم عن جمعية العلماء والتي تحملت عبء انهاض التعليم العربي، وتكلمنا أيضا عن الطلبة إن في تونس أو في الجزائر وعن حجم المشاكل التي يتعرضون لها.

أما في الباب الثاني الذي يمتد من 1956 إلى 1962 تاريخ الاستقلال عن فرنسا. في هذا الباب يمكننا تلخيصه في كلمة الثورة، لا حديث في هذه الفترة إلا عن الثورة فتبعنا في محورها الأول بداية الثورة وكيفية تقبلها ومن ثم كيفية تقديمها للقارئ التونسي خصوصا من خلال محاولة شرح أسباب الثورة ثم تحدثنا بإسهاب عن الموقف الجزائري من اتفاقات الاستقلال الداخلي بتونس في الوقت الذي بدأت فيه ثورة الجزائر. ثم تكلمنا عن موقف الجالية الجزائرية عقب استقلال تونس التام، ثم أخيرا عن المعركة القلمية التي تارت بسبب الاعتداءات على تجار بني ميزاب.

أما في محورها الثاني فأشرنا إلى القمع الاستعماري الذي تعرض له الشعب ثم عن احتضان الشعب للثورة ومعه الطلبة المقيمون في تونس الذين لم يتخلفوا عن أداء الواجب الوطني.

أما في المحور الثالث فقد تحدثنا عن دور الدعاية كسلاح فعال لدعم الثورة، فتكلمنا عن الدعاية ضد فرنسا وعن الدعاية لصالح الثورة والثوار. ثم عرجنا على الدعم الخارجي الواجب تقديمه للشعب الجزائري في ثورته ضد الظلم، وفي مرحلة أخيرة تحدثنا عن محاولة استشراف المستقبل الذي كان ينتظره الشعب الجزائري قبيل وبعد تحقيق الهدف الذي من أجله ثار، ألا وهو الاستقلال التام.

أنهينا عملنا بخاتمة أودعناها الاستنتاجات التي خرجنا بها من الفترة المدروسة.

أملنا أن نكون قد قدمنا شيئا للبحث العلمي وأضفنا لبنة ولو صغيرة في بنائه وأعطينا من وهبوا أنفسهم - رجالا ونساء - للكتابة في الصحافة التونسية، دفاعا عن فكرة اعتقدوا صحتها حقهم.

تمهيد

شهدت الفترة التي رافقت وتلت الحرب العالمية الثانية زلزالاً في العلاقات الدولية لشدة التغيرات الحاصلة في العالم.

لقد ظهرت قوتان عالميتان جديدتان شغلتا الساحة الدولية بحربهما الباردة مقسمةً العالم إلى قطبين يدور على رحاهما صراعهما الأيديولوجي الذي عمّر ما يزيد عن أربعة عقود من الزمن، بينما فقدت القوى الاستعمارية التقليدية الكثير من قوتها وهيبتها الدولية عقب الجهد المبذول لمكافحة توسع دول المحور وخصوصاً ألمانيا النازية.

هذه الوضعية الجديدة والتميّزة بسوء الأحوال الاقتصادية على المستوى الدولي الناجمة عن الدمار الهائل الذي خلفته سنوات الحرب - الولايات المتحدة الأمريكية خرجت من الحرب كأكبر مستفيد محققة ازدهاراً غير مسبوق وأرباحاً اقتصادية خيالية، أهلتها هذه الوضعية للزعامة العالمية - أكدت الوعي الذي اجتاح العالم المستعمر بأن الاستعمار ليس قضاءً وقدراً خصوصاً وأن بعض الدول منه قد حصلت على استقلالها مباشرة بعد نهاية الحرب (اندونيسيا، سوريا، لبنان، الهند، باكستان وسيلان سيريلانكا حالياً) الأمر الذي أنعش آمال البقية بالفرج القريب، وقد عاضدها في ذلك تأسيس هيئة الأمم المتحدة، على خلفية الحفاظ على السلام العالمي وحماية الضعيف من ظلم القوي.

أما على المستوى العربي فقد كان لقيام جامعة الدول العربية رنة من الفرح ممزوجة بالتمني أن تكون أولخطوة لتوحيد العرب، خاصة وقد جاءت في ظرف عصيب للعرب قبيل قيام دولة اسرائيل وهم يرون اليهود يتحصلون على المعونات بينما هم ممنوعون من تقديم العون لإخوانهم مهما كان نوعه لتقع الهزيمة العربية عام 1948 وتخلّف مرارة في النفوس بأن لا حل إلا إذا أخذ أبناء المنطقة - فعلا - أمرهم بأيديهم.

في هذه الظرفية السياسية والاقتصادية والاجتماعية تنزل كتابات الجزائريون في الصحافة التونسية.

انقسم الكتاب الجزائريون قبل الثورة التحريرية إلى تيارين كبيرين هما التيار الاصلاحى ممثلا في أنصار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتيار الوطنى الاستقلالى ممثلا في أنصار حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وسواء كان هؤلاء الكتاب مقيمين في تونس أو في الجزائر فإن الميزة المميّزة لهم أنهم في أغليبيتهم الساحقة من طلبة الزيتونة أو ممن درسوا فيها سابقا.

كان أغلب من كتب في هذه الفترة من مناصري التيار الاصلاحى بحيث كتبوا في تمجيد جمعية العلماء ورجالها وأعمالها، وبقية المواضيع الأثيرة لدى العلماء (التعليم، تحرير الدين الاسلامي واللغة العربية، ومهاجمة الطريقين وعادات المجتمع الفاسدة) أما أنصار حركة الانتصار للحريات الديمقراطية فقد كانت عن الجوانب السياسية البحتة في الغالب الأعم وكان لديهم اهتمام خاص بما يجري في تونس والمغرب، وباقي أجزاء الوطن العربي وهم أكثر جراءة ووضوح في انتقاد الاستعمار.

الملفت للانتباه في قائمة الكتاب وجود 04 فتيات بينهم وهذا شيء نادر الحدوث في تلك الفترة خاصة وأنهن لسن مقيمات بتونس إذ كن يرسلن مساهماتهن عبر البريد، ويبدو أن هذه الطريقة كانت عامة بين الجزائريين مساهمة تلك الفتيات انحصرت في الحديث عن مشاكل عالم المرأة وكانت إحداهن تلميذة في مدرسة الفلاح بوهران.

كان هناك صنف آخر من الكتاب اختفى وراء أسماء مستعارة لكن لها دلالاتها كفتى الجزائر، وطني حر، توفيق، أبو سعيد، ابن عمر، أما آخرون فقد اعتمدوا على كتابة حرفين من الاسم ك م. د أو خ. د وهناك بكل بساطة مقالات غير ممضية اتعبتنا كثيرا في محاولة لنسبتها.

لم تكن الأحوال في المغرب العربي كذلك على ما يرام، ففي تونس كانت مشكلة العرش ما تزال مطروحة منذ عزل الملك المنصف باي سنة 1943 وإلى غاية وفاته سنة 1948 والقوى الوطنية تعلن عن مطالبها بالاستقلال التام في مؤتمر ليلة القدر عام 1946 قبل أن يتراجع عنها الحزب الحر الدستوري الجديد لصالح سياسة المراحل، أما في المغرب الأقصى فإن الوضع كان مشابها للوضع في تونس صراع بين الملك محمد الخامس من جهة والإقامة العامة من جهة ثانية خاصة بعد خطاب طنجة عام 1947 ذلك الصراع الذي بلغ قمته مع خلع الملك من عرشه في 20 أوت 1953، أدت هذه الأوضاع إلى انفجار المقاومة في البلدين.

أما في الجزائر فقد كانت الأحداث جسيمة ومنسارعة شهدت إهزام فرنسا أمام ألمانيا وبعي نظام فيشي بين 1940 و 1942 ثم الإنزال الحليف في نوفمبر 1942 الذي رافقه دعاية واسعة لمبادئ وثيقة الأطلسي وكثير الحديث عن الحرية، حتى حفظ الناس في الجزائر كلمة حرية بالإنجليزية (freedom فريدم) ذات مفعول محجري أحيت الآمال والوعي بالتححر والاستقلال زادها تاججا إنشاء أحزاب البيان والحرية أو الهيكل تجمعي يجمع مختلف التيارات السياسية الجزائرية إلا أن هذا الأمل حطته مجازر ماي 1945 التي أظهرت مرة أخرى الوجه البشع للاستعمار، ليتواصل القمع بعدها إلى غاية الاستقلال، فكانت فترة للظلم والاضطهاد، شهدت هذه الفترة أيضا إصدار دستور الجزائر عام 1947 فكان هيكلا دون روح رافقه التزوير الانتخابي إلى غاية حله عام 1956، مما أبعث الوطنيين عن التأثير في حاضر ومستقبل بلادهم التي عاشت أزمة اقتصادية حادة دفعت بأغلبية الجزائريين إلى حضيض الفقر والخصاصة والاستغلال من قبل المعمرين الأوروبيين¹. لقد كانت هذه الأحداث والحالة المعيشية مساهمة في تبلور الوعي الوطني للجزائريين وطريقهم نحو التحرر والذي بدأت مراحلها الأخيرة مع انطلاق الثورة التحريرية في نوفمبر 1954.

مع اندلاع الثورة انتفى الانتماء الحزبي لكثاب هذه الفترة لصالح الانتساب للثورة بعدما اشترطت ذلك - قبلا - جبهة التحرير الوطني

¹ أنظر عبد اللطيف ابن اشنهو: تكون التخلف بالجزائر: محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر ما بين عامي 1830 و 1962، ترجمة مجموعة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979

وأصبحوا يرون أنفسهم ثوارا، فاضحت الكتابة في هذه الظروف في خدمة الثورة والثوار ولا شيء غير ذلك، ما يلاحظ أن جيلا جديدا أخذ المشعل من الجيل السابق الذي كتب قبل الثورة لكن مع الاستمرارية على النهج التحرري إلى غاية تحقيق النصر.

الباب الأول

كتابات ما بين 1947 و1955

الفصل الأول: الحياة السياسية

1. دستور الجزائر لعام 1947 والانتخابات

تمت المصادقة على هذا الدستور يوم 20 سبتمبر 1947 من طرف البرلمان الفرنسي¹. والذي لم يحظ برضاء أحد سواء من الجانب الجزائري أو من جانب الجالية الأوروبية - حتى قبل اعتماده² - فقد رفض نواب حركة انتصار الحريات الديمقراطية حتى مبدأ أن يشرع البرلمان الفرنسي دستور للجزائر، معتبرين ذلك من حق مجلس وطني تأسيسي³. أما الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري فقد خرج نوابه من قاعة التصويت احتجاجا على استبعاد مناقشة البرلمان لمشروع الحزب والممثل في جمهورية جزائرية ذات حكم ذاتي، مشاركة في الاتحاد الفرنسي، مرتكزة على ثنائية الجنسية للجالية الفرنسية وللجزائريين⁴ أما العلماء فقد رأوا فيه "... مولود غير مستعد للخير"⁵.

¹ André NOUSCHI, La naissance du nationalisme algérien : 1914 - 1954, Ed. Minuit, Paris, 1962, p 149.

² Charles - Robert AGERON, Histoire de l'Algérie contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954, T2, éd. P.U.F., Paris, 1979, p 611.

³ حديث صحفي مع أحمد مزغنة، الزهرة، 28 مارس 1948، ص 01.

⁴ Charles-Robert AGERON, op. cit, p 605.

⁵ ندوة صحفية للمربي التبيسي بتونس، الأسبوع، 05 ديسمبر 1948، ص 06.

هذا الاستقبال السبع لما سمي بدستور الجزائر، له ما يبرره في نظر أحمد توفيق المدني، ففي تحليله¹ يرى أن هناك نقاط قوة وذلك تجاوزا.

أولاً: الاعتراف المبدي بأن القطر الجزائري ليس هو فرنسا، ولا يمكن أن يكون قطعة من فرنسا [...] وذلك هو مدلول تأسيس مجلس جزائري مطلق النظر في المسائل المالية والاصلاحات الداخلية، والنظر في إمكان أو عدم إمكان تنفيذ القوانين الفرنسية بالبلاد الجزائرية.

ثانياً: إعلان التساوي التام في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والأوروبيين وفتح أبواب المناصب العامة أمام الجميع عند تساوي الكفاءة وإلغاء كل القوانين الاستثنائية، أو الزاجرة التي كان مفعولها مختصاً بالمسلمين.

ثالثاً: الاعتراف بمبدأ التساوي في المجالس المنتخبة بين الجزائريين والأوروبيين.

رابعاً: الاعتراف بحرية الدين الاسلامي واستقلاله عن الحكومية وترك سائر أموره لجماعة المسلمين يتصرفون فيه حسب مصلحة الدين لا حسب هوى الإدارة.

أما نقاط الضعف فهي:

أولاً: إن المجلس الجزائري² ليس له حق التشريع ولا يسن للجزائر ما يراه صالحاً لها من قوانين عامة إلا فيما يتعلق بالمسائل المالية الداخلية [...]

¹ حديث صحفي مع أحمد توفيق المدني، الأسبوع، 08 أوت 1948، ص 03.
² برلمان استحدثه دستور 1947 يتكون من 120 عضو وبكالتساوي بين الجالية الأوروبية والجزائريين.

فقصارى نظر المجلس الجزائري أنه يدرس القوانين الفرنسية التي يصدرها مجلس الأمة الفرنسي، فإن رآها مناسبة أصدر أمرا بتنفيذها، وإذا رآها غير ملائمة للقطر الجزائري حوَرها أو عدلها. أما إذا أراد سن قانون جديد فعليه أن يطلب من المجلس الوطني الفرنسي أن يسن ذلك القانون ثم يأمر هو بتنفيذه.

ثانيا: إن هذا القانون مع اعترافه بأن سائر الجزائريين على الإطلاق مهما كان دينهم وأصلهم ولغتهم، يعتبرون مواطنين فرنسيين متساوين في الحقوق قد قسم الناخبين إلى قسمين اثنين [...] إن الديمقراطية الحرة التي سنّها نظام الجزائر الجديدة تقتضي أن الفرنسي المسيحي واليهودي يعادل تسعة من الجزائريين المسلمين.

ثالثا: تدخل الإدارة في الانتخابات مما يعني أن النواب سيكونون على مقاسها وهم من جماعة بني وي وي، وهذه نقطة ضعف قاتلة للتجربة برمتها.

من الناحية القانونية لا يمكن نقد هذا الدستور عن عدم تطبيق بعض الأحكام التقدمية التي أتى بها كإلغاء الحكم العسكري في الجنوب والبلديات المختلطة ثم حق المرأة المسلمة وتعليم اللغة العربية وترسيمها من خلال ترك ذلك إلى القوانين العضوية التي سنّها المجلس الجزائري¹. ومن خلال الموانع التي أقرها الدستور لشل عمل المجلس، خاصة نسبة الثلثين (المستحيلة)

¹Colette et François JANSON, L'Algérie hors la loi, éd. Seuil, Paris, 2^{ème} édition, 1955, p 79.

لتعريف بعض القوانين¹ وهذا هو المطلوب من طرف الإدارة الفرنسية والجمالية الأوروبية، وكان هذا غير كاف لإبقاء الوضع كما هو فإنه كان لا بد من تزوير الانتخابات بأنواعها لحرمان الوطنيين من أي وسيلة للتأثير على مستقبل البلاد.

كثرت الانتخابات في الفترة التي ندرسها (1947-1954) وكثر الاهتمام بها سواء من جانب الوطنيين أو من جانب الإدارة الفرنسية، رغم أن النظام الانتخابي في الجزائر صورة بارزة للوجود الاستعماري بالجزائر. فبخلاف طابعه العنصري المرتكز على قاعدة المجمعين الانتخابيين المنفصلين. أحدهما المجمع الأول يضم هيئة ناخبة ممثلة لمليون أوروبي وبعض المجلسين من الأهالي. والمجمع الثاني يمثل لما يزيد عن 09 ملايين من الأهالي. ورغم أن التمثيل النيابي للجزائريين في أحسن الأحوال هو التساوي مع ممثلي الطائفة الأوروبية في المجلس الجزائري، أما في المجالس العمالية والبلدية فإن التمثيل لا يزيد على خمسي الأعضاء، وأن الإدارة الفرنسية أبت إلا إضافة ضمان آخر وهو صناعة الانتخابات.

ولذا أصبح العرف الانتخابي يتلخص كما يلي : للشعب حق الاقتراع على من يشاء وللسلطات الاستعمارية حق اعطاء النتيجة كما تريد².

¹ André NOUSCHI, op. cit, pp. 152-153.

² عبد الله مبريط، ثقافة الشعب ج 3، الصباح، 24 أوت 1951، ص 04.

فالإدارة في هذه الحالة هي الناخبة والمنتخبة معا¹ والمجالس تصبح معينة لا منتخبة².

أما التحضير للانتخابات يتم قبل مدة بإشاعة جو من الإرهاب والرعب من خلال حملات الاعتقالات والمحاكمات الزجرية التي لا تستثنى حتى النواب (الجزائريون)³.

أما يوم الانتخاب فالتجاوزات عديدة بدءاً بتكوين مكاتب مراكز الاقتراع، إلى عدم احترام أوقات فتح وغلق هذه المراكز، إلى جعل بعضها سرية، إلى غياب أوراق الانتخاب الخاصة بالمرشحين الوطنيين من هذه المراكز، إلى منع ممثليهم من مراقبة سير العملية الانتخابية، أو إيقافهم أو طردهم تحت ضربات أعقاب البنادق من مراكز الاقتراع إلى الملء المسبق للصناديق بأوراق مرشحي الإدارة، أو سرقتها من قبل العسكريين أو تعويضها بأخرى مملوءة وقت امضاء محاضر الفرز، إلى تصويت الموتى أو الغائبين إلى تصويت رجال الإدارة بالوكالة عن عشرات الناخبين⁴. ولسنا في حاجة إلى التنبه بأن هذه التجاوزات تقع في المجمع الانتخابي الثاني فقط.

¹ في الجزائر، الانتخابات الجزائرية، الزهرة، 07 فيفري 1951، ص 04.

² Charles-Robert AGERON, op. cit., p 611.

³ André NOUSCHL, op. cit, p 154.

⁴ Mahfoud KADDACHE, Histoire du nationalisme algérien : Question nationale et politique algérienne : 1919-1951, T2, éd. S.N.E.D., Alger, 1980, pp 796-797.

لذا أصبحت عبارة الانتخابات على الطريقة الجزائرية مثلا يضرب للدلالة على انتخاب غير نزيه¹. وحجة رجال الإدارة الفرنسية لتزوير الانتخابات هي أن الاختيار ليس بين انتخابات حرة وانتخابات مزورة، بل هو بين انتخابات مزورة من طرف المصالحين، وانتخابات مزورة من طرف الولاية العامة ونحن اخترنا الثانية...².

فإن كانت الانتخابات البلدية لعام 1947 مصدر أمل لكثير من الجزائريين³، فإن الانتخابات اللاحقة أصابت كل الجزائريين بالإحباط⁴ لأنها حطمت كل محرار لقياس درجات التزوير على قول فرحات عباس⁵ ولم يبق لهم من مخرج إلا أن يثوروا⁶. وبالتالي كان التساؤل الدائم حول جدوى هذه الانتخابات بالنسبة للجزائريين. بل وكل المؤسسات التي جاءت عن طريق دستور 1947.

2. مشكلة مشاركة بني ميزاب في المجلس الجزائري

أثارت مسألة مشاركة بني ميزاب في المجلس الجزائري جدلا في الأوساط الميزابية بين مؤيد ومعارض.

¹ Marcel EGRATAUD, Réalité de la nation algérienne, éd. sociales, Paris, 2^e édition, 1961, p 223.

² Charles-Robert AGERON, op. cit, p 611.

³ حناقي بلقاسم بن علي، الحركة الوطنية تنصر انتصارات مدعشة، الزهرة، 30 أكتوبر 1947، ص 02.

⁴ فني الجزائر، المصدر السابق.

⁵ Ferhat ABBAS, Autopsie d'une guerre : L'aurore, éd Garnier frères, Paris, 1980, p 119.

⁶ Charles-André JULIEN (Intro.) in Pierre Nora, les français d'Algérie, éd. JULLIARD, Paris, 1961, p 20.

فالمعارضون يرون أن ذلك يعني نهاية مفعول معاهدة الحماية الموقعة مع فرنسا سنة 1853 والتي تترك لميزاب... تمام الاستقلال الذاتي الداخلي من الوجهة الدينية والثقافية والإدارية، وإدارة البلاد داخليا بمجالس داخلية تنتخب بالاقتراع العام طبق العوائد العتيقة للبلاد...¹ وهذا معناه في نظرهم... بحق ذاتية ميزاب وسلب حقوقه وميزاته. وأر هذه الامتيازات أداء الخدمة العسكرية² باعتبار الميزابيين مواطنين كاملي الحقوق والواجبات وأن قبول الفصل الثالث من دستور 1947 الذي يسمح للميزابيين أن انفقوا بالتقاضي في أمورهم المتعلقة بالحالة الشخصية أمام قضاة الصلح والمحاكم الفرنسية بدل التحاكم إلى قضائهم [هو] ارتداد صريح [في عرفهم]...³ من ناحية أخرى (القبول بالفصل 53 يجعل بلاد ميزاب مجرد بلديات بسيطة ضمن العمالة الجزائرية⁴ وليس لها أدنى امتياز⁴. ويعيب المعارضون وجود مقعد واحد لميزاب - بقرض أنهم رضوا بالنظام الجديد - مما يجعل مصالح ميزاب تضيع عند التصويت في المجلس الجزائري بالخضوع لمنطق الأغلبية⁵

¹ مفدي زكريا (تصريح بياريس)، الزهرة، 26 مارس 1948، ص 01.
² الحاج محمد عمر ابن عيسى ابن إبراهيم، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب من ناحيته الدينية والسياسية والاجتماعية من سنة 1853 إلى سنة 1951، مطبعة النهضة، تونس، 1951، ص 88.
³ أحمد توفيق المدني... مشاركة وادي ميزاب في الانتخابات الجزائرية، الأسبوع، 30 ماي 1948، ص 03

⁴ بقصد مقاطعة أو محافظة الجزائر وليس البلاد الجزائرية كلها.
⁵ الحاج محمد عمر ابن عيسى ابن إبراهيم، المرجع السابق، ص 88، 89.
⁶ المرجع نفسه.

بينما يرى المؤيدون للمشاركة في المجلس الجزائري أن هذه المشاركة تقوي المعاهدة وتثبتها وقد اعترف بوجودها. ودليل ذلك جعل الحكومة الفرنسية مقعدا خاصا لميزاب وحده¹.

كما يمكنه الحصول على بعض المنافع المادية كاستفادة من الميزانية العامة الجزائرية كتعميد الطرق أو حفر الآبار الارتوازية أو مواجهة كل أزمة طارئة. كما يمكن لنائب ميزاب الدفاع عن وجهة النظر الميزابية في سائر ما يتعلق بمصالح الميزابيين سواء كانوا بالتل أو بأرض الوطن ولربما كانت هذه المواقف آثارا من حيث جلب المصالح أو درء الأخطار². وهذا الأمر يتطلب جهودا من أبناء الأمة لمؤازرة نائبهم في المجلس الجزائري وعدم الاتكال عليه فقط لتحقيق المنافع المرجوة من هذه النيابة.

وقد انتصر مؤيدو المشاركة في المجلس الجزائري وانتخب الشيخ ابراهيم بيوض نائبا عن ميزاب واعتبروا يوم الانتخاب، يوما مشهودا، تراحم فيه أبناء ميزاب أمام مكاتب الاقتراع، ولم يتخلف إلا المعذورون لانبثاتهم في أنحاء القطر النائية. وفي البلاد التونسية³. في نفس الوقت واصل المعارضون كفاحهم، محاولين إلغاء انتخابات أبريل 1948 بإثبات أن معاهدة 1853 ما

¹ الشيخ أبي البقطان الشاب والحياة الجديدة، الأسبوع، 08 جانفي 1951، ص 05.

² عيسى بوحمام بن الحاج عمر، الشعب الميزابي يشارك إخوانه الجزائريين في الكفاح، الأسبوع، 09 ماي 1948، ص 06.

³ المصدر نفسه.

رأى سارية المفعول¹. ميدان آخر للتناطح مع فرنسا واشتهار معاهدة 1853 في وجهها كوسيلة لدرء أخطارها عن منطقة ميزاب.

المياه في ميزاب قضية حياة أو موت، بها يتعلق مصير الوطن الميزابي كله وهي تعتبر من ناحية أخرى أكبر جريمة استعمارية، ونوعا جديدا من سياسة التفتير. تريد الحكومة [الفرنسية] من ورائها أن تسلب الميزابيين حقهم الطبيعي من المياه التي توجد تحت أراضيهم وتتصرف وحدها في أهم مورد اقتصادي. وسلاحها في ذلك الشركة الاستغلالية للمياه الموجودة تحت ارض الجنوب الجزائري التي منحها امتياز حفر الآبار الارتوازية مع ضمان الحوز الأهلي لميزاب سداد ديون هذه الشركة في حالة عجزها عن الدفع، مما أثار غضب الميزابيين، وقاطعوا مياه هذه الشركة رغم شدة حاجتهم للمياه لسقي غاباتهم². لأن في ذلك تدخل في أمورهم الداخلية، وخرق لمعاهدة 1853. كما أنها بهذه الطريقة تتحكم في تسعير المياه مما يضع المنطقة كلها تحت رحمة هذه الشركة. وهذا استغلال فاضح لثروة الوطن من طرف الأجانب مع حرمان ابتائه منه³.

لقد فشل مشروع لاريجي - la Régie - الذي كان يهدد البلاد بالخراب، وانفتح الباب أمام النقابات والتعاونيات الوطنية [التابعة لأهل البلد] للحلول محلها، وتشمير على سواعد أهل ميزاب للبناء والتعمير، حتى

¹ الحاج محمد عمر ابن عيسى ابن ابراهيم، المرجع السابق، ص 68.
² وطني حر، المياه بوادي ميزاب، الأسبوع، 09 أبريل 1951، ص 02.
³ الحاج محمد عمر ابن عيسى ابن ابراهيم، المرجع السابق، ص 34، 35.

لا يطفى عليهم سبل الأجانب ويرموا بهم إلى حضيض الحمالين والشحاذين¹.

وهذه دعوة لشباب ميزاب للالتحاق بركب الحياة العصرية بالعمل على تطوير منطقتهم وافتتاحها على العلم الحديث والأخذ بأسبابه ليكون لهم موقع تحت الشمس. وقد كفاهم الجيل الذي قبلهم مؤونة تحضير الأرضية لذلك بالدعوة إلى الإصلاح وترسيخه ومقارعة خصومه والاستعمار معا والتحدي للشباب الميزاب الا يبقوا أذئابا في بلادهم². وهذا لن يتحقق إلا بالتعاون والائتاد بين جميع طبقات الشعب الجزائري وحركاته.

3. الائتاد

كان الائتاد أهم مطلب للحركة الوطنية، كل توجه له نظرتة للوحدة وكيفية تحقيقها. وكانت تجربة أحباب البيان والحرية تجربة فريدة. غير أنها وبعد قمع ماي 1945 كانت السبب في تأخر إعادة الوحدة للساحة السياسية الجزائرية. وانطلقت أصوات تطالب بالوحدة من جديد لأن "... ائتاد القوى الوطنية ازاء هذا الاعتداء الاستعماري أمر ضروري متحتم لنجاح القضية الوطنية وبلوغ الشعب الجزائري ما يصبو اليه من حرية واستقلال..."³.

¹ الشيخ أبي اليقظان، المصدر السابق.
² المصدر نفسه.

³ لائحة من السكان الجزائريين بتونس إلى الأحزاب الجزائرية، الزهرة، 12 ماي 1951، ص 02.

كان الجزائريون واعين بأهمية الاتحاد¹ في زمن... لا يطلع فيه إلا الشعب الذي توحدت صفوفه وتآخى أبنائه، أخوة أشد من الرحم، وأقوى من أواصر القرابة ووشائج الأرومة الواحدة...² وبأن الطريق إليه ليس مفروشا بالورد لأنه عزيز عزة القبيلة المدرية³ ومن يطلبه عليه أن يدفع ثمنه ب... تكران الذات في الدرجة الأولى ويليه اصطناع الحكمة دائما في معالجة الصلات بين العاملين لصالح البلاد. ولو كان في شيء من الذل وقبول الذل لصالح الاتحاد الجليل والواجب المقدس لأن فيه نصحية وصبرا...⁴ هو إذن صفاء الضمائر وإخلاص المبدأ وتظافر في الجهودات، وتفان في العمل مع إعراض عن النقائص وتناس للضعفان...⁵

إن أسس الاتحاد موجودة سواء مادية أو روحية، أي من إقتصاد وعقيدة ولغة، وما يجمع الجزائريين أكثر مما يفرقهم وما يبعدهم عن فرنسا أكثر مما يقربهم. وبالتالي فرض التساؤل عن مبررات الشقاق نفسه على الجزائريين⁶.

دائما وفي مثل هذه الحالات يكون الاستعمار هو المتهم الأول، فإن لم يظهر لهم سافرا أشاروا له من خلال أذنايه، فمثلا رأى البعض في سعي الولاية العامة إسقاط الحصانة البرلمانية عن نائب حركة الانتصار للحريات

¹ محمد الساسي حول قضية محمد خيضر، أمي عمولة لعزلة الاتحاد بالجزائر، الأسبوع، 15 جانفي 1951، ص 11.

² الأمين عبد العزيز، واجب المرأة المسلمة في ظروفها الحاضرة، الأسبوع، 24 نوفمبر 1952، ص 06.

³ تصريح الفضيل الورتلاني الأسبوع، 29 أكتوبر 1951، ص 01.

⁴ المصدر نفسه.

⁵ نفس الجزائر، أو أطل الصباح من وراء القرون، الصباح، 22 فيفري 1951، ص 04.

⁶ المصدر نفسه.

الديمقراطية في البرلمان الفرنسي، السيد محمد خيضر - بخلاف اتهامه بضلوعه في السطو على البريد المركزي بوهران عام 1949¹؛ مؤامرة لمنع اتحاد الأحزاب السياسية والفعاليات الجزائرية مع حركة الانتصار للحريات الديمقراطية... فتتفر [...] من الاتحاد مع هذه الحركة التي هي من الشعب وإلى الشعب أو تخاف من المستعمرين أن يفعلوا بها فعلهم بأعضاء هذه الحركة².

إلا أن الدعوة للاتحاد تواصلت رغم هذه المناورات الاستعمارية، بل ربما كانت حافزا إلى الوعي بأهمية الاتحاد. وبالتالي العمل على تحقيقه، وكل حزب من الأحزاب الوطنية يدعي شرف ذلك سواء أكانت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية³ أو جمعية العلماء⁴. وليست لنا فكرة عن رأي الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري أو الحزب الشيوعي لأننا لم نجد كتابات تعكس آرائهما على صفحات الجرائد التونسية، ولكن لا نخال ادعاؤهما هذا الشرف. والتجربة الفاشلة للجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها شاهد على ذلك⁵.

¹ C.F. Henri ALLEG ; (sous dir.), la guerre d'Algérie, T.1. éd. Temps actuels, Paris, 1981.

² محمد الساسي، المصدر السابق.

³ قس الجزائر، المصدر السابق، أيضا تصريحات شوقي مصطفى، الصباح، 25 مارس 1951.

⁴ أ.ع. أثر الحركة الإصلاحية بالجزائر، الأسبوع، 20 فيفري 1950، ص 05.

⁵ Emmanuel SIVAN, Communisme et nationalisme en Algérie 1920 - 1962, Ed. Presses de la fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1976, pp 185-186.

نظرا للأوضاع السيئة التي كانت تعيشها الجزائر أضحي موقف الحياد في الاتحاد [...] جريمة وذلك بالنظر إلى أن قوى العالم تكتلت فيه ولم يعد للضعفاء من مكان. كما أن التاريخ علمهم أن الضعفاء والمشتين كانوا دائما وقود حروب الأقوياء والذين يؤبون دائما بخفي حنين ولا سبيل إلى محو هذه الوضعية المزرية إلا بالاتحاد¹.

إن الرؤية الاستشرافية وبعد نظر الجزائريين ترى أن الاتحاد المنشود بالنسبة لهم لا يقتصر على الجزائريين فقط... فالجزائر وحدها لا يمكن لها أن نجيا وتزهر (بعد تحقيق وحدتها وهي المرحلة الأولى) إلا ضمن المغرب العربي الموحد فكريا وعمليا. فتلك هي المرحلة الثانية [...] ثم أن المغرب العربي لا يمكن له أن يعيش وحده لما يحتاج إليه في بنائه بعد التخریب الاستعماري من المواد المادية والفكرية، فحوله العالم الاسلامي المنتشر في أصقاع الأرض فتلك هي المرحلة الثالثة...².

4. التوجه العربي

لم يتخلّ الجزائريون عن انتمائهم العربي في يوم من الأيام، رغم كل المحن التي مرت بهم ورغم ما قامت به السلطة الفرنسية لاجتثاث هذا الشعور بالانتماء إلى وطن أكبر من الجزائر.

¹ فني الجزائر، المصدر السابق.

² المصدر نفسه.

يعترف الجزائريون أن العروبة شعت على العالم ثم خبت طبق سنة التداول¹ لكن ظهور جامعة الدول العربية سنة 1945 أحيى الآمال في عودة العروبة إلى إشعاعها السابق، بل أكثر من ذلك أن تتحول إلى قوة ثالثة أمام القوتين المتصارعتين وقتئذ².

ولأن القضية متشعبة وليست بالسهولة المتصورة، خاصة بالنسبة للجزائريين، فإن عبد الله شريط خصص لها سلسلة مقالات في جريدة الصباح بعنوان القومية العربية بين الفكر والواقع³. شرح فيها معنى القومية العربية، وأكد فيها، أنها ما زالت في الطور الفكري ولم تنزل بعد إلى الواقع رغم توفر الخصائص المؤسسة لقومية ما من مجال جغرافي متصل، جنس وإراث فكري واحد من لغة وثقافة ودين ورغبة مشتركة في التجمع ورابطة الدم، وحتى المحن السياسية الناتجة عن التجزئة كعامل جذب للتجمع.

وفي رايه أن ذلك القصور يرجع إلى أن الأمر لم يأخذ مجراه الطبيعي كما جرى في أوروبا، أي من القاعدة إلى القمة. لكن الذي حدث عند العرب هو العكس أي أن القمة حاولت فرض هذه الأيديولوجيا على الشعب الذي بقي بمعزل عنها لا يدري من جزئياتها شيئا، ولا يعلم عن كلياتها قليلا أو كثيرا... الشيء الذي عرض هذا العمل للانهايار عند أو لمواجهة مع عوامل سياسية معاكسة. وهذا يعني بالنسبة لشريط أن... لا قومية بدون شعب والشعب العربي هو المخزن القومية العربية...

¹ الطيب الشريف، من وحي العروبة ج 2، الأسبوع، 11 أبريل 1948، ص 03.

² المصدر نفسه.

³ بلغت عشرة مقالات. ظهرت ما بين 18 ماي و 03 أوت 1951.

ويرى شريط أن الإحساس بالتفرد، والعمل على نشأة القوميات الضيفة - حتى أصبح لبنان ينادي بالقومية الفينيقية، ومصر تتغنى بالقومية الفرعونية - إنما هو من عمل الاستعمار بضغطه الشديد على الشعب العربي في كل قطر على حدة، مما يخلق التزعة الانعزالية المؤيدة إلى هذا الأمر.

هذا الانعزال يقطع الصلة بين فروع الشعب العربي حتى يصبح المصري ... يتوهم أن سوريا عبارة عن قبائل من البدو ومدنها أكواخ من الطين. وأصبح اللبناني لا يعرف عن مصر إلا أنها مسرح للعبيد الغلاظ الذين يعيشون على أعشاب وادي النيل. وكان جميعهم (...) لا يعرفون عن سكان شمال أفريقيا إلا أنهم أناس يتطوعون في الجيش الفرنسي ولا يعرفون عن أصلهم شيئاً. ولا نندهش كما اندهشت تلك الطالبة السورية حينما أخبرها أحد الطلبة الجزائريين في الجامعة السورية بأنه ليس فرنسياً وبأنه عربي، وأن العربية تعلمها في حجر أمه الأمية قبل المدرسة.

هذا الانقطاع في التواصل جعل البعض من الجزائريين يكفرون بالقومية العربية لأنها في نظرهم صياغة بريطانية¹ لضرب الأمة الإسلامية، لأن ... فكرة القوميات انتاج أوروبي حينما فشلت الفكرة الدينية في جمعهم في دولة واحدة. ولن يصلح [ذلك] في الشرق لأنه يستمد وجوده ذاتيته من طبقاته الروحانية². كما أنه ظهر اتجاه، أحدث بالخصوص سنة 1949 ما دعي بالأزمة البربرية في صلب الحركة الوطنية برفضه فكرة الانتماء العربي

¹ محمد الحاج الناصر، الجهاد العربي في طور جديد، الأسبوع، 28 فيفري 1949، ص 09.

² المصدر نفسه.

للجزائر، لكنه أخذ بسرعة¹. وبقي الإحساس بالانتماء العربي الإسلامي هو المهيمن ولقضاياه الأولوية في الدعم والتضامن.

وكانت القضية الفلسطينية إحدى القضايا العربية التي أجمع الشعب الجزائري على العمل من أجل حلها حلا عادلا يعيد للشعب الفلسطيني حقوقه على أرضه. وقد وجدت فيها كل الاتجاهات الجزائرية مبررا للعمل من أجلها².

لقد قرأتها الكتابات الجزائرية على أنها مؤامرة بريطانية من خلال خلق دولة إسرائيل سعيا للحفاظ على مكائنها في المشرق العربي في مواجهة العملاقين الجديدين: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي³ الذين وجدا في تأييد قيام دولة إسرائيل خدمة لأهدافهما في المنطقة⁴. فكانت مساعدهم فاضحة لليهود لتركيز كيانهم في فلسطين بالسلاح والمؤونة وخصوصا بتسهيل الهجرة إلى هناك.

في الجزائر فتحت الهجرة اليهودية الأعين على ما يجري في فلسطين، خاصة حينما يكون مركز انطلاقها العاصمة الجزائرية بعد تجمع اليهود فيها قادمين من أقطار المغرب العربي الثلاث⁵. وهذا أمر لا يمكن السكوت عليه حين يثبت تواطؤ الإدارة الفرنسية في الجزائر وباريس ليس بتزويدهم

¹ C.F. Ben Youssef BEN KHEDDA, Les origines du 1^{er} novembre 1954, Ed. Dahlab. Alger, 1989, pp 169-186.

² حديث صحفي مع أحمد توفيق المدني، الأسبوع، 15 أوت 1948، ص 03.

³ محمد الحاج الناصر، المصدر السابق.

⁴ إبراهيم أبو حميدة كيف يتحقق السلام؟، ج 2، الأسبوع، 28 فيفري 1949.

⁵ إبراهيم أبو حميدة، كيف يتحقق السلام. ج 2، الأسبوع، 28 فيفري 1949.

بجوازات السفر فحسب بل وتدريبهم على حذق استعمال السلاح وفي أحسن الأحوال غض الطرف عن نشاطاتهم تلك مما أيسر إذابة للجزائريين فحسب بل هو إذابة لجميع المسلمين حيث ما كانوا...¹، الشيء الذي أثار غضب الجزائريين وهم يرون أنفسهم ممنوعين من إعانة إخوانهم الفلسطينيين ولو بالمال² وهذا لن يخدم السلام العالمي على الإطلاق³.

إلا أن فشل الجزائريين في تدعيم القضية الفلسطينية لم يكن بسبب التدخل الاستعماري فحسب بل توزع جهودهم وخلافاتهم أضعفت هذا المجهود، من خلال محاولة كل حركة من الحركات الجزائرية تزعم القضية⁴ فتحولت لجنة إعانة فلسطين إلى ميدان صراع بين الأتحاد الديمقراطي وحركة الانتصار بهدف استغلالها للدعاية الحزبية، فرفضت حركة الانتصار اقتراح الأتحاد الديمقراطي وجمعية العلماء بأن تمضى بقرارات التضامن من طرف الشيخ الإبراهيمي مؤاخذه الحركتين على محاولة تعجيم العمل لصالح فلسطين العربية والمستقلة في إطار ديني مجت والبحث عن تهميش مصالي⁵.

رغم هذا التشرذم في العمل على المستوى السياسي فإن العمل في أرض المعركة بالنسبة للمتطوعين المغاربة كان شيئاً آخر أظهروا فيها براعتهم

¹ توفيق ثواب حزب الشعب الجزائري يحتجون ضد السياسة الحالية بالجزائر وترحيل اليهود إلى فلسطين الزهرة، 31 ماي 1947، ص 01.

² المصدر نفسه.

³ إبراهيم أبو حميدة، المصدر السابق.

⁴ نور الدين بن محمد، قابلت الزعيم أحمد مصالي الحاج، الأسبوع، 18 جويلية 1948، ص 03.

⁵ Mahfoud KADDACHE, op. cit. p 783.

وشجاعتهم في الملمات. فكانوا البضعة من الآلاف التي سكبت دمها على الأرض العربية المقدسة والتي هاجرت وطنها لا للارتزاق، وطلب العيش، بل للاستشهاد وطلب الحياة في الموت. فكانوا صورة لإمكانيات العرب المغاربة واستعدادهم لتبيض الوجه في الميادين الشريفة. كما قال عنهم عزام باشا¹.

5. الوحدة المغربية

لم تكن الدعوة إلى الوحدة المغربية بمجديدة على الوسط الجزائري، فقد طرحت على صفحات الجرائد التونسية منذ العشرينات من القرن العشرين². وتواصل هذا الاهتمام في الفترة التي ندرسها.

وصل الأمر إلى أن يؤكد الجزائري الأفرق بين الدول الثلاث وأنه... لا مبرر لقول كل من قال من الجزائريين والمغاربة أن المسألة التونسية مسألة داخلية لا دخل لنا فيها وكل التونسيون والمغاربة في القضايا الجزائرية ونحن [الجزائريون] والتونسيون في القضايا المغربية...³. وهو يرى أن الاستعمار واحد في الأقطار الثلاث وأن الاستعمارين الفرنسي والاسباني يوحدان جهودهما لإبقاء المغرب العربي تحت سيطرتهم، أليس هذا بكاف لكي تتوحد أقطار المغرب العربي؟. ليعملوا معا من أجل تحررهم، خاصة وأن

¹ عبد الله شريط، مجاهد تونسي يتحدث عن معارك التحرير بالأراضي المقدسة، الأسبوع، 24 جويلية 1948، ص 01.

² محمد صالح الجابري، الأدب الجزائري في تونس : 1900-1962، ج 1، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق والدراسات - بيت الحكمة -، قرطاج، 1991، ص 33.

³ عبد الجليل السعودي بلازقا جيمعا بالاستعمار، الأسبوع، 19 فيفري 1951، ص 10.

الاستعمار... ينظر إلى المغرب العربي نظرة واحدة، ويعين واحدة. فما يمنعنا نحن [المغاربة] من النظر إليه بنفس العين التي ينظر بها إلينا...¹ كما أن المتغيرات الدولية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية تسير في صالح الأقوياء المتوحدون لا الضعفاء المتشتتون.

وإيماننا بهذه الوحدة، عمل الجزائريون على استغلال أي مناسبة لتدعيم أواصر الوحدة والأخوة المغربية. وكانت عودة الزعيم الحبيب بورقيبة من المشرق العربي إلى تونس في سبتمبر 1949 إحداها. فإذا صدقنا السيد عبد الله ميمون فقد... انتشر خبر رجوع الزعيم بسرعة البرق وتناقله الجزائريون إلى القرى المنعزلة والبوادي النائية، وكلهم يتباشرون خيرا بمقدمه الميمون ويحمدون الله على وصوله سالما بعد إتمام المهمة التي اضطلع بها هو وصحبه الكرام وقاموا بها خير قيام² ويشفعون ذلك كله بالتعاليق التي تتم على الإيمان بمستقبل المغرب العربي والعزم على مواصلة الكفاح خلف رجال الوطنية المغربية الذين ضربوا المثل عاليا في التضحية والثبات والعمل المتواصل...².

وإذا فهمنا الأمر، فإنه يبدو أن الوعي بالوجود المغربي - في هذه الفترة التي نعالجها - قد تخطى حدود النخبة ليجتاح الأوساط الشعبية. فبعدما كان الاحتقار متبادلا في هذه الأوساط في البلدان الثلاث على السواء -

¹ المصدر نفسه.

² C.F. Samya EL MACHAT, La Tunisie : les chemins vers l'indépendance, 1945 - 1956. Éd. l'Harmattan, coll. « Histoire et perspectives méditerranéennes », Paris, 1992.

² عبد الله ميمون، مرحبا بالزعيم الحبيب، الزهرة، 14 سبتمبر 1949، ص 02.

فالتونسي شرقي وبرانّي حقير في نظر العامي الجزائري والمغربي الذين هما مغربيان شريان في نظر العامي التونسي - تغيرت الأوضاع وأضحى العامي لا يحس بالغربة في أي بلد من البلدان الثلاث بل أكثر من ذلك يحس بأنه في وطنه، وأن الأجنبي على هذه الأرض إنما هو ذلك الأوروبي المستعمر ولا أحد سواه¹.

وأن هذا الوعي حساسية شديدة ازاء أي دعوات شعبية من أي جهة صدرت، فقد كان رد الفعل قويا وعنيفا ضد مقال للهادي الملولي مدير إحدى المدارس العربية في صفاقس ينتقد فيه الجرائد التونسية اهتمامها بقضايا المغرب العربي ويدعوها إلى الاكتفاء بالقضايا التونسية. واعتبر فيه مجلة الثريا مثلا مجلة مروكية تطبع في تونس، وذكرت الأسبوع أنها تلقت كما هائلا من الردود من أهل الفكر من الأقطار الثلاث، واكتفت بنشر رد واحد² اعتبرته كافيا لتقريع هذا الشعبي وانبرى صاحب الرد يسفه هذه الدعوة الإقليمية. ويتساءل عن تركه في منصبه ينفث سمومه في جيل كامل من أبناء المغرب العربي على العكس ما يفعله هو - باعتباره مديرا للمدرسة الحديث يتلمسان - يافساحه حيزاهاما - لغرس الروح المغاربية في تلامذته - في برنامج التعليم، وأعطانا نماذج من ذلك أشعارا وأناشيد.

¹ عبد الرحمان بن العفون، وحدة الشمال الإفريقي يجب ان تحقق قلبا وقالبا، الأسبوع، 01 اوت 1948، ص 03.

² محمد الصالح رمضان، في التربية القومية إلى الأستاذ المربي بمدارسنا العربية، الأسبوع، 04 ماي 1947، ص 03.

هذا العمل التربوي الداعم للشعور بالوحدة المغاربية - الذي يزداد مع ازدياد القهر الاستعماري - يعتبر غير كاف لوحده، بل لا بد من تدعيمها بالفن¹ والثقافة²، وخصوصا بالاقتصاد³ أي خلق بجانب الوحدة المعنوية الوحدة العملية المادية⁴، لتكون متكاملة والوعي بها أمثنا وأدوم.

¹ حديث صحفي مع عمي الدين باشرقي، الأسبوع، 18 جويلية 1949، ص 12.

² إسماعيل العربي، المؤتمر الثقافي رمز وحدتنا الفكرية، الأسبوع، 07 نوفمبر 1949، ص 03.

³ السائح الاقتصادي الجزائري، فتح جديد في الاقتصاد الجزائري، تأسيس شركة الأمل، الزهرة، 07 ماي 1947، ص 02.

⁴ عبد الله ميمون، المصدر السابق.

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية

1. الدعوة لتعليم المرأة

في مجتمع تسعة أعشار أبنائه خارج إطار النظام التعليمي الفرنسي، إنها إرادة الاستعمار الفرنسي، في إطار سياسته الرامية إلى تجهيل الشعب الجزائري، قصد مزيد إحكام السيطرة عليه.

مثلت الفتاة نسبة كبيرة من هذا المجتمع الجاهل¹. لذا قامت بعضهن بالمطالبة بحقهن في التعلّم، لأن "... واجب كل بنت مسلمة أن تنزع ستار الجهل، تضيء ظلمته بنور العلم..."² كما أنهان "... خرجت المرأة من ظلمات الجهل [...] وأضاء نور العلم الزاهر قلبها [...] لتتهدي به إلى الحياة الجميلة أمكنها أن تخدم أمتها [...] وأن تبني لأبناء الجزائر مستقبلا باسمها [...] وتسهر على سعادتهم، وتحفف من شقائهم وتكون [كوكبا] دريا يلمع في سماء الحياة، ونبراسا قويا يسطع في جو الجزائر خصوصا³. وحجتهن في ذلك الأمر... أن البنت في الدار كالقلب في الجسم إذا فسد القلب فسد الجسم كله

¹ Germaine TELLION. L'Algérie en 1957, éd. Minuit, Paris, 1957, pp 68 - 69.
² حليلة مهدي، البنت المسلمة تطالب بالعلم والمعرفة، الأسبوع، 20 ماي 1951، ص 06.
³ ليلي بن ذياب، واجب المرأة بالمنزل، الأسبوع، 15 أوت 1949، ص 03.

وإذا صلح القلب صلح الجسم كله، والبنيت في الدار إذا كانت صالحة صلح كل من كان معها، وإذا كانت فاسدة فسد كل من كان معها¹.

لهذا لا بدّ من صيحة فزع تطلقها الألسن لإيقاظ هذا المجتمع الراكد لأنّ... الدعوة إلى الحياة بغير علم سفه وجنون، والدعوة إلى النهضة والتفكير بدون ثقافة تضليل وتزوير...² والفتاة الجزائرية أولى بهذه الصرخة أن... استيقظي من سباتك الطويل للعمل والكفاح ومشاركة العاملين في الاجتماع فليس من المعقول أن تلدي الأحياء يقتلون الحياة [...] الشعب الجزائري المنكود يناديك من أعماق أعماق الضمير أن تلدي له الحياة كما كنت - ولا زلت - تلدين له الأحياء. والسبيل الأول [...] هو سبيل العلم ولا سبيل يضمن لك النجاح إلا هذا السبيل³. إنها في نظر البعض... المدرسة الخطيرة التي يجب أن تخلق من الأطفال أسودا لا ترهب المنون، لا تعالّب تخاف من ظلها...⁴.

إن هذه الصرخات، أن علموها، علموها أو إلى الموت فادفعوها⁵، لم تجد دائما الصدى الذي تستحقه فإن كان أحمد توفيق المدني مثلا، دعا إلى... تعليم وتهذيب المرأة والخروج بها إلى العمل في الميدان الذي أعدت له⁶.

¹ خيرة صبري، زوال الجهل، الأسبوع، 23 جانفي 1950، ص 11.

² أنيسة بومدين، نداء إلى السيدات والفتيات الجزائريات من جمعية الفتاة العربية الجزائرية، الأسبوع، 15 أوت 1948، ص 07.

³ نفس المصدر.

⁴ الأمين عبد العزيز، المصدر السابق.

⁵ الصالح الجموعي، الاحتفالات بالمولد بقسنطينة، الأسبوع، 09 جانفي 1950، ص 11.

⁶ أبو سعيد، جمعية الفتاة العربية الجزائرية في احتفالها العام الأسبوع، 9 ديسمبر 1948، ص 07.

وهذا موقف يحسب له وللتيار الاصلاحى الذي يمثله، فإن آخرين يمثلون تياراً رجعياً... ما زال يفكر بعقلية القرون الوسطى التي ترى في تعليم البنت حراماً...¹ ويرى أن الفتيات اللواتي يترددن على المدارس لم يتعلمن غير الوقاحة وفسدت طباعهن وأخلاقهن، وأضحت البنت تخطب في الجامع وفي قاعات الأفراح ولا يتطرق الحياء إلى جبينها، بل ويرى أن السماء أمسكت عنهم غيظها عقاباً لهم على ذلك الأمر² وترد الفتيات من ناحيتهن أن هذه الوقاحة إنما هي النشاط والتبوغ، ويخلفن بأن... بنت متعلمة وقحة خير من بنت جاهلة (كالزير المتكي، ما تضحك ما تبكي)...³، ويشرون أن قضيتهن قد انتصرت رغماً عن الرجعيين، وحجتهم في ذلك إحداث فروع في جامع الزيتونة والقرويين لتعليم المرأة، وذلك لأن جامع الزيتونة هو قبلة الأمة ومرجعها في الملهمات فإذا كان للنساء فيه قدم ومكانة فإنهن يشاركن الرجال في كل شيء وربما بلباقتهن يستحوذن على كل شيء...⁴ وكن يحملن آنذاك بأن تغطي كتابات متخرجات الزيتونة والقرويين صفحات الجرائد، وكتبهن تصدر واجهات المكتبات⁵. أما اليوم فيبدو هذا حلماً تافها مقارنة بما حققته المرأة، لكن في وقته كان حلماً كبيراً يحجم الجهل المستشري في البلاد خاصة وسط الإناث اللواتي طرحن السؤال المتعلق بالمسؤول عن تفشي ظاهرة الجهل.

¹ محمد الطيب السحيري، مغرورة، الأسبوع، 20 جوان 1955، ص 03.

² نفس المصدر.

³ الصالح الجموعي، المصدر السابق.

⁴ حمزة بوكوشة، مع امرأة في القطار، الأسبوع، 02 جانفي 1950، ص 11.

⁵ المصدر نفسه.

فذلك الوجوه لا تصح في الفروع التي لا يملكها الزوج، فمثل ذلك ما هو من جهة
 المرأة من الوضوء الكفاي الذي كانت عليه في حالها في حالها التي كانت عليه
 غيره في الأمر، فالمسئلة بحسبها جميع الأحوال تلك التي كانت عليها في حالها
 أو من جهة من المسئلة في غيرها... كما في مسئلة من مسئلة أو مسئلة
 غيرها، واختارها في الفروع التي لا يملكها الزوج، ويظهر من ذلك
 من أحسن ما فهم من أن كل مسألة في غير مسئلة أو مسئلة أو مسئلة
 أو مسئلة أو مسئلة... كما في مسئلة أو مسئلة أو مسئلة أو مسئلة...
 الأمر تعين أن يستحسن قول الفروع في مسئلة أو مسئلة أو مسئلة أو مسئلة
 من كسر وضل وضع [ـ] ولا يورث في مسئلة أو مسئلة أو مسئلة أو مسئلة
 فيها أو غيرها أو غيرها...¹ وهذا يعني دور المسئلة في مسئلة أو مسئلة
 من خلال الأمر بالتعريف والشيء من الشكر...² فمثل هذا هو
 والقصد وهذا الظن المستحق [ـ] وقد لا يملكها إلا المساعدة فربح عند
 ومنها العزير، وتقطع به تلك المسئلة العسيرة العسيرة...³

2. الزواج ومشكلة الزنى

إن توقف أفراد المجتمع الجزائري عند تعيين آليات التكافل في تصدده
 إلى ذلك يوازي الأوقفي عظمه، خاصة في مجتمع محافظ كالصالحين الجزائري
 حيث تحتل قيم الشرف والعرض مكانة مشيئة وكما وما يورث في نظر
 المجتمع الجزائري أن الزواج هو أفضل وسيلة لإثبات تلك القيم من الأهل...

¹ قيمة عسيرة، العسيرة العسيرة
² العسيرة
³ قيمة عسيرة، العسيرة العسيرة

إلا إن استفحال العنوسة والعزوبية في أوساط الشباب هو ناقوس الخطر على الخلل الذي ينخر المجتمع.

لقد اعتبر البعض أن نسبة العنوسة مست 90 % من الشباب¹، رغم ما في هذه النسبة من مبالغة، فإنها تظهر مدى التخوف من انعكاسات الظاهرة على البنيان الاجتماعي. وهذا أول الطريق لمعالجة الظاهرة.

كان غلاء المهور على رأس القائمة المسؤولة عن هذه الظاهرة، فمثلا عام 1949، كانت تكاليف العرس تقدر في حدود 250 ألف فرنكا²، وهو مبلغ ضخم بحساب أسعار سنين قريبة مما بالك بعام 1949، حيث الفقر والبطالة ونتائج الحرب العالمية الثانية الكارثة وخاصة الاقتصادية منها³ أما المحفوظ الذي يملك منصب عمل، فإن متوسط الأجر اليومي لا يفي بالضروريات⁴، أما أن يوفر المرء منه تكاليف الزواج فذاك حلم بعيد المنال.

تحمل الآباء جزءا كبيرا من النقد لمعاليتهم في مهور بناتهم... شرطا مشرطا لا صداقا معقولا [...] وإلا عضلوهن، وإن طالبت السنون طوعا لإرادتهن الخسيسة واجحافا بحقوق بناتهم عليهم وخروجها عن واجب الرعاية...⁵، وهم لا يدرون بأنهم بهذا العمل قد جعلوا بناتهم بضائع

¹ عيد القادر هالي، ثورة الأوانس، الأسبوع، 02 مارس 1949، ص 11.
² المصدر نفسه.

³ إبراهيم أبو حميدة. كيف يتحقق السلام؟ ج 1، الأسبوع، 21 فيفري 1949، ص 09.

⁴ Voir : Albert CAMUS, actuelles III, chroniques algériennes : 1939 - 1958, éd. Gallimard, Paris, 1958, reproduite par l'imprimerie floch en 1981.

⁵ إبراهيم أبو حميدة، الأمة عليلة وأخطر أدواتها الزنى، فمن لنا بالدواء الناجع، الأسبوع، 26 ديسمبر 1949، ص 03.

محتكرة وأعراضا مبتذلة...¹، إلا أن الآباء في نظر البعض لا يتحملون المسؤولية لوحدهم، فالشباب لهم نصيب فيها ف... إذا كنا [كما يقول قائلهم] نحمّل على الآباء ملاما وعتابا فقد يستحقون العذرة إن هم أنقوا من سوء خصالكم وقبيح أعمالكم اذ بناتهم أعز شيء لديهم فلا ينبغي أن يضعوه عند فاجر سكير أو مقامر شرير وعاهر حقير. وهل يجعل العسل النقي في إناء متسخ قدر؟².

إن تحميل المسؤولية لهذا الطرف أو ذاك لا يحل مشكلة العنوسة هذا... الخطر المحدق بالوطن برجال الجيل القادم...³ مما يؤدي آليا إلى ما هو أدهى وأمر تزايد عدد الأجانب [بالجزائر] مواليد وقادمين للبلاد [مما يعني] أنه سيصبح يوما ما عددهم أكثر من عدد الأفارقة [يقصد الجزائريين أصحاب الأرض]⁴. هذا الشيء الذي يبيّن لنا أن الجزائريين كانوا واعين بالانعكاسات السياسية على المدى الطويل على الوطن، وليس على المدى القصير فقط من خلال استئثار الفساد في صلب المجتمع الجزائري وأخطره الزنا ف... من غريزة الرجل والمرأة أن يميل أحدهما إلى الآخر وإذا لم يُجمع بينهما بطريق شرعي فلا بد من أن تجمعهما الفاحشة⁵.

¹ المصدر نفسه.

² المصدر نفسه.

³ عبد القادر هالي، المصدر السابق.

⁴ المصدر نفسه.

⁵ إبراهيم أبو حميدة، الأمة عذبة وأخطر أدواتها الزنى، فمن لنا بالدواء الناجع.

اهتم الجزائريون بهذه المشكلة لخطورتها على تماسك المجتمع الجزائري، فحاولوا تشريح الظاهرة، تمهيدا للقضاء عليها. بخلاف المشاكل المترتبة عن عدم قدرة الشباب التزوج في زمن أضحى فيه الزواج... عقد تجارة لا عقد تحصيل...¹.

كالعادة صب الجزائريون جام غضبهم على الاستعمار الذي فتح... أبواب العهر في وجه الشبيبة كإعداد الفنادق ومحلات البغي [حتى يكون له الشعب] دابة مركوبة أو سائمة مأكولة...²، وشجع ألبغاء العلني حتى أضحت المومسات ذات نفوذ وسطوة لدى السلطات الاستعمارية والويل لمن يثر غضبهن عليه³ - طبعاً من الجزائريين - إن هذا لا يعني أن كل مشاكل المجتمع الجزائري سببها الاستعمار بل إن في رحمه أسباباً أخرى. فغياب التربية والتعليم سبب مساعد على انتشار هذه الظاهرة. فإذا... كان الطفل لم يغذ منذ الصغر بحسن الأخلاق وطيب الخصال شب بالطبع على الميول إلى اللذة من غير وازع...⁴ حتى النساء والرجال لهم نصيب كبير في انتشار هذه الظاهرة. النساء - حسب ما يرى البعض -... تلقى [هذه] منهن السافرة، مبالغاً في الفجور المتين لا قصد التمذّن كما تدعّين، والمتردية لحاف النفاق والتمويه لحاف العفة والتنزيه يترددن على الأنهج والشوارع وما أكثر ترددهن ليلاً اصطفاً لما عسى أن يقع في [أشراكهن]...⁵ وذلك بسبب أنه

¹ المصدر نفسه.

² المصدر نفسه.

³ الخواص الملي، نجتمعنا في تدور واجب إنقائه، الأسبوع، 31 أوت 1950، ص 08.

⁴ إبراهيم أبو حميدة، المصدر السابق.

⁵ المصدر نفسه.

أصبح "... من الميسور لديهن التبرج سافرات في الشوارع والمتزهات ودور السينما..."¹. أما مسؤولية الرجال فلأن البعض "... يقضون نهارهم وسواد ليلهم في المقاهي وموائد القمار على حساب سقوط زوجاتهم وبناتهم في أحبولة الدعارة وفخ الشيطان..."².

إن الجمعيات السياسية والدينية، خاصة العلماء - لم تسلم من الانتقاد وتحميل المسؤولية، فدعيت إلى الابتعاد عن التوافه والتركيز على الاستعمار وتدارك المجتمع قبل "... تفاقم الداء [فتشن] حربا شعواء [...] على الانحلال الخلفي"³.

إذن أين الحل في مجتمع "... بات مسرحا تمثل على خشبته أدوار التخنث والتنطع وضروب الفجور والمجون..."⁴؟ يرى البعض ذلك في دعوة الشباب الجزائري إلى التكتل في سبيل تأسيس جمعية للشبان المسلمين

كثدود عن حياض العروبة والاسلام⁵ على شاكلة ما هو واقع في تونس فما "... محافظة تونس الشقيقة على حذق القرآن الكريم وتعليم البنات تعليما اسلاميا، روحيا يؤهلها للقيام بوظيفتها العائلية والمنزلية، وأداء

¹ الحراس الميلي : المصدر السابق.

² المصدر نفسه.

³ المصدر نفسه.

⁴ المصدر نفسه.

⁵ C.F. Mustapha KRAËM: La classe ouvrière tunisienne et la lutte de libération nationale (1939-1952), imp. U.G.T.T., Tunis, 1980, p 344.

ورسالتها الاجتماعية على الوجه الأكمل إلا بجمعية الشبان المسلمين¹
والفضل يرجع إليها وحدها².

3 حرية المرأة بين مؤيد ومعارض

موضوع ما زال إلى اليوم حديث الساعة مع نفس المواقف وإن كان
بصيغة متطورة، ربما ما ذكرنا سابقا له علاقة وثيقة بهذا الأمر إذ إن بالنسبة إلى
مؤيدي حرية وحقوق المرأة معارضيهـم.

كان البعض - خاصة الفقهاء - يعتبرون المرأة عورة، واسمها عورة
وصورتها عورة [...] [ويرون أن] تيار السفور جارف وأن قبلة هذه
الشكلة ستفجر انفجارا هائلا [...] والمرأة الجزائرية المسلمة [...] في بحر
متلاطم الأمواج لا تحسن السباحة فيه ولم تجد منارا تهتدي به في ظلمات
الحياة والمسؤولون عن إصلاح المجتمع في غفلة عن ذلك معرضون، والويل
لهم يوم يحرفهم السيل وتسيطر المرأة على كل شيء ولن يقلح قوم
ولو المرهم امرأة [...] فإنها إذا انحرفت قيد شعرة عن سمتها تؤدي بحياة
جيل كامل في هاوية سحيقة ما لها من قرار...³ ويبدو أنهم شنوا حملة على
الشيخ مصطفى حلوش، من خلال جريدة البصائر حينما كانت تحت رئاسة
الشيخ الطيب العلي وذلك لمطالبته بتحرير المرأة من قيودها.

¹ Ibidem, p 360

² الخواص البلي، المصدر السابق
³ حمزة بوكوشة، المصدر السابق.

فاعتبر دعاة تحرير المرأة هذا الأمر تزامنا مصطنعا، أرجع المجتمع ككل إلى الوراثة، ونضال المرأة من أجل حقوقها مشروع، ... [ف] أي طائر في قفص ولا يريد الخروج منه؟ وأي مقيد يمشي في الوحل، ولا يحاول التخلص من قيده¹. وهم يتعجبون من كتاب في الجزائر ... تطاوعهم أعلامهم في كل شيء إلا في هذا الموضوع فكأنه ملفوف بعقارب ومحاظ بأشواك، فمتى يدركون أن لا حياة لأمة إذا ماتت الأموات والأخت والزوجة والبنات². فتححرير المرأة جزء من تحرير المجتمع من قيوده وأولا من مظاهر تخلفه.

4. من مظاهر التخلف في المجتمع الجزائري

"الاستعمار لم يترك منفذا ينفذ منه إلى جسم هذا الشعب المكلوم إلا وطرقه، وله في ذلك أفانين واذناب طوع أمره، وفي جملة هذه الشرور التي تنخر في جسد هذا الشعب البائس، الذي ابتلاه الله بالجهل ثم بالاستعمار الذي يأخذ على عاتقه أينما حل - حماية هذا المرض الفتاك والقيام على ترعرعه بين أفراد الأمة وطبقاتها وبث روح الشقاق بسببه بين هيئاتها، شر التبذير...³

تعتبر عادة الزرادي أو الطعم⁴ إحدى الخرافات التي شجعها الاستعمار بواسطة أذنابه لإفقار هذا الشعب ونزع آخر ما بقي في يديه من ممتلكات.

¹ المصدر نفسه.

² المصدر نفسه.

³ م.خ، أهل الجزائر في تقدم، الأسبوع، 31 أكتوبر 1949، ص 04.

⁴ احتفال في العادة سنوي يقام باسم أحد أولياء الله الصالحين، جلليا ليركته ودفعا لضرره.

فانت ترى الفلاح البائس يشارك في الزردة^١. إما عن عقيدة، رغبة في رضا سيدي فلان أو في عدم التعرض لسخطه وهو في القبر أو نفاقاً و زهية من الأذئاب الذين قاموا بالدعوة لها. لكلا يوشوا عنه أسيادهم والذي تخلف عن إجابة دعوتهم والمشاركة في طعامهم وزردهم، وإما خوفاً من شماتة الجار والعشيرة. فيقوم هذا البائس برهن أرضه وأكثرائها لجاره المعمر لأجل طويل بثمان بخس.

أما المعدمون فأنهم يسخرون - من طرف الأذئاب، الطامعين في النياشين، والشيعات^٢ - للعمل أيام الزردة، بدعوى أنها زيارة، وإلا كان مصيرهم النيد والمجران.

أما الأذئاب فأنهم لا يغرمون شيئاً، إنما خسائرهم من الخزائن التي تعمر بدماء الشعب وعرقه، بطريقة أو بأخرى.

الفائدة الحقيقية من هذه الأعمال هي النتيجة التي يجنيها المعمر من وراء هذا التبذير فيستحوذ على ما بقي من أراض ودور في يد الأهالي على قلتها وعلى اختلاف الوسائل المساعدة من خمر وقمار وزنا ووظيف ورشوة ونياشين^٣.

وقد هوجمت هذه العادة هجوماً شرساً، خاصة من قبل جمعية العلماء، نظراً لنتائجها الوخيمة على اقتصاد البلاد عامة، ونال الداعين إليها

^١ مفرد الزرادي.

^٢ بمعنى شيوخ ذكر الشخص.

^٣ مخ، المصدر السابق.

والعاملين عليها نقد شديد من خلال الطعن في نياتهم المعلنة لتبرير إقامة الزرادي، فيقول المنتقدون : ' ما لنا لا نرى هؤلاء الفلاحين مشتدّين في إخراج الزكاة التي أمر الله بها كل من يدعي الاسلام [...] لو كان قصدهم ارضاء سيدي فلان لجمعوا عشر تلك الأموال [يقصدون تلك الأموال التي تصرف في الزرادي] وبنوا بها مدارس لفقراء القبيلة، أو مداشر لسكن مساكن العشيرة أو تقريب الحياة أو تعبيد الطرق أو بناء الجسور، أو شراء قطع من الأرض وتحييسها للدفن، ولهم ان يسموا هذه المنشآت بمنشآت سيدي فلان، ونحن نضمن لهم رضاء الرب، ثم رضاء الذي ارادوه إن كان حقاً ما يزعمون¹ .

وكراء أراضي الكومين² طريقة أخرى للاستحواذ على أموال الشعب الجزائري، وفي نفس الوقت بث الضغينة والفرقة في صفوفه أي ضرب عصفورين بحجر واحد. بمعنى تفقيره وخلق الشقاق في كيانه. وهذا نموذج من الدهاء الاستعماري، والمتمثل في عملية كراء الأراضي البلدية للجزائريين - والتي هي في الأصل ملك لهم صودرت منهم - حيث يكتفون حياتهم لأربع سنوات، مدة عقد الكراء، يقع الشقاق منذ المزاو العلي. من خلال تخاصم الناس على الفوز بالكومين والنتيجة رفع أثمان الكراء إلى أعلى المستويات بما يفيد خزينة البلدية الاستعمارية - مع العلم أن الأغلبية العظمى من هذه الأموال تصرف على مصالح الجالية الأوروبية - .

¹ م.خ، المصدر السابق، والتسطير خاص.

² الكومين : تحريف لكلمة Terre communale أي الأراضي التابعة للبلدية.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتواصل التشاحن بالخصومات اليومية المتكررة - بين الكرايين - بالعصي ولا تته هذه المعارك إلا أحد الأطراف في المستشفى والآخر في السجن، لمجرد أن حيوان أحد الخصمين دخل حدود كوميون الطرف الآخر وهكذا دواليك، ومعها يضمن المستعمر عدم اتفاق الناس عليه¹.

¹ بوعلام ابن الزرقا، يوم الكرامة، الصباح، 15 أبريل 1956، ص 03.

الفصل الثالث: الحياة الدينية والعلمية

1. الحياة الطلابية

قدّر عدد الطلبة الجزائريين سنة 1947 بسبعمائة طالب كلهم يدرسون في جامع الزيتونة¹. وكان لا بدّ لهذا العدد الكبير من رابطة تجمعهم. وكانت عودة جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين ضرورة خاصة بعد توقف النشاط كلية ابان الحرب العالمية الثانية وبعد انتخابات نوفمبر 1946 والتي أتت بالشيخ عبد الرحمان شيبان على رأس الجمعية، رأى هذا الأخير إعادة التعريف بالجمعية وإعادة ربطها بالطلبة الجزائريين - والذين يبدو أن الكثير منهم لم يعاصر المرحلة الأولى من عمر الجمعية (1934-1939) - فكتب مقالا مطولا في الأسبوع² تناول فيه تاريخ الجمعية منذ تأسيسها إلى غاية ترؤوسه اياها وذكر أنها في المرحلة الأولى إنما ركزت على العمل الأدبي وأهملت الجانب المادي للطلبة نظرا لوضعيتها المادية المتردية، والتي تواصلت مع عودتها إلى الساحة.

¹ تلميذ جزائري، الجزائر والحي الزيتوني، النهضة، 07 سبتمبر 1947، ص 04.

² عبد الرحمان شيبان، جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، الأسبوع، 30 مارس 1947، ص ص 04، 08.

هذه الوضعية المأسوية دفعت الطلبة من خلال جمعيتهم إلى طلب المساعدة من اخوانهم الجزائريين المقيمين بتونس¹. ورغم الأزمة الاقتصادية الحادة وحالة الخصاصة السائدة - بعد الحرب العالمية الثانية - في الجزائر وتونس على السواء². فقد استجاب هؤلاء لهذا الطلب المستعجل قدر استطاعتهم، وكان أهل ماطر من المسارعين لنجدتهم، مما حدا بالكاتب العام للجمعية إلى التنويه بعملهم من خلال نشر أسماء المتبرعين³ تنويها بهم وحثا لغيرهم على التبرع. ولكن تلك الهبات لم تكف، ففكرت جمعية الطلبة الجزائريين في القيام برحلة إلى ربوع القطر الجزائري خلال عطلة المولد النبوي الشريف (العام 1367هـ - 1948م) لعرض إحدى المسرحيات العربية الخالدة وقد وقع الاختيار على مسرحية - طارق بن زياد - لما فيها من الذكريات الماجدة والمغازي السامية⁴ الشيء الذي ساعد الجمعية على القيام ببعض من واجباتها في مساعدة الطلبة الذين كانوا في غالبيتهم العظمى فقراء باستثناء الطلبة المنحدرين من ميزاب الذين كان لهم تنظيمهم الخاص يشرف عليه أحد علماء ميزاب وميزانيته يمولها بالخصوص التجار من المذهب الإباضي، الشيء الذي مكن هؤلاء الطلبة من التعلم في ظروف

¹ أعمار التجار الجزائريون المقيمون بتونس في إعانة الطلبة الجزائريين بتونس، الزهرة، 19 فيفري 1948، ص 01.

² الكروي القسنطيني، أزمة ما بعد الحرب أم تازم اجتماعي : الفقراء بتونس 1949 من أعمال الندوة الدولية الخامسة حول البلاد التونسية في فترة ما بعد الحرب (1945-1950)، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1991، ص ص 88-90.

³ بلغ المبلغ المتبرع به 127 ألف فرنك أما أصول غالب المتبرعين فتعود لمنطقة سطيف والقبائل
⁴ الأسبوع، 21 مارس 1948، ص 07، المسرحية طافت الشرق الجزائري وبعثت في قسنطينة صورة لابن باديس بـ 90 ألف فرنك وأخرى لمصالي الحاج بـ 30 ألف فرنك

مقبولة¹. هذه الظروف السيئة مست أيضا الطلبة الموجودين في الجزائر. فهنا هم طلبة معهد ابن باديس، يناشدون رجال العلم والأدب عامة والمؤلفين والناشرين خاصة بأن يتفضلوا على مكتبة المعهد الباديسي بما تجود به همهم وغيرتهم على انتشار الثقافة بهذه الربوع. إذن سواء كان الطالب في الجزائر أو تونس فإن الظروف متشابهة بل متطابقة حتى في الانقسام السياسي.

لقد أدى الاختلاف في الوجة التي أتى منها كل طالب إلى حدوث نوع من التكتل. فتكتل المتخرجون من مدارس جمعية العلماء أو من معهد ابن باديس - في بعثة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين واستقل مؤيدو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بجمعية الطلبة الجزائريين. وجمع طلبة وادي ميزاب الانتماء للمذهب الإباضي، وهناك مجموعة رابعة قليلة العدد يجمع بينهم الانتساب إلى ألكتانية ومعهدا في قسنطينة. يبقى غالبية الطلبة الجزائريون لا يهمهم إلا تحصيل العلم لا يرغبون في الانخراط تحت أي لون سياسي².

يبدو أن الانقسام والاختلاف بين توجه جمعية العلماء ونظيره حركة الانتصار قد بلغ حدا كان لا بد معه من تدخل العقلاء من الجالية الجزائرية بتونس - لإصلاح ذات البين. وفعلا صدرت دعوة موقعة من التنظيمين للكف عن الخلاف: لأن التآخي الوطني والرابطة العلمية يقضيان على كل

¹ محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس: 1900 - 1962 الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طرابلس، الجزائر، 1983، ص 101.

² مراسلة الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السانحي، مؤرخة في 17 مارس 1999.

تلميذ جزائري أن يترفع عن كل ما من شأنه أن يصدع وحدتنا وينال من
اخوتنا - يواصل النداء - وإن هجرتنا المباركة لتوجب علينا أن نتماسك
وتعاضد في كل أعمالنا وأن نبذل كل ما في الوسع لتحقيق الغاية الشريفة
التي هاجرنا من أجلها...¹ إلا أنه من المؤكد أن الخلاف لم يته بين الطرفين
وإلا ما صدرت عن توفيق المدني دعوة صادقة لترك الخلافات الحزبية
والاهتمام في هذه المرحلة بتحصيل العلم فقط لحاجة الأمة إلى ذلك²
وجتى هذه الدعوة لم تجد أذانا صاغية في وقت كانت فيه الدعوة إلى الاتحاد
عملة رائجة في الجزائر³. لذا أجبر عبد الحميد بن هدوقة على كتابة مجموعة
مقالات حول رسالة الجمعيات⁴ أو صلته إلى قناعة أن كثرة الطلبة هي سبب
الانقسام مستشهدا بجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين وجمعية طلبة شمال
افريقيا. ويتساءل عن انحلال عقدة الاتحاد في وقت لم يتغير فيه شيء من
الظروف الخارجة عن نطاق الجمعيات؟ ليخلص إلى أن هذا حدث بسبب
الاندفاع مع العاطفة... اندفاعا مقيتا ضاعت معه قوانا وتلاشت حيويتنا بين
الأتانيات [...] وبذلك اتحنا - يواصل بن هدوقة - للمستغلين أن يتنفخوا
بتخاذلنا واندفاعنا...⁵ ومن ذلك فإن المهمة الأساسية في تلك المرحلة -
حسبن هدوقة - هي... تحرير الشباب من عواطفه وتوحيد صفوفه

¹ نداء إلى الطلبة الجزائريين الزيتونيين، الزهرة، 20 أبريل 1948، ص 02.

² م.ع، جمعية العلماء، الأسبوع، 02 أبريل 1951، ص 06.

³ Henri ALLEG (s. dir.), la guerre d'Algérie, T1, éd. temps actuel, Paris, 1981, p 326.

⁴ أربع مقالات بتاريخ 21، 28 مارس، 18 أبريل، 23 ماي 1954 بجريدة الصباح.

⁵ عبد الحميد بن هدوقة، رسالة الجمعيات، ج 03، الصباح، 18 أبريل 1954، ص 03.

وتبصيره بعواقب اندفاعه...¹ والاتحاد يحقق للشباب الطالبي هدفين على الاستعمار الاختيار بينهما.

- إما أن يسحقهم، وهذا شيء مستحيل لأن الطغيان كالأخدود فيه حثف الطاغية، كما أن الضغط دائما يولد الانفجار.

- وأما أن يذعن لما يريدونه وتتحقق مصلحتهم² وتوقعهم إلى التحرر كهدف نهائي والتعلم والتحصيل تحقيقا لرجاء الأمة فيهم من هذه الهجرة³ كهدف مرحلي.

ويبدو رغم محاولة جمعيته دفعهم إلى ذلك، مما يجعلنا نستنتج أن الانقسامات إنما كانت في قمة تلك التنظيمات المتنافسة لها ما يبررها ما دامت هناك معطيات نظامية لكل توجه⁴ وهذا لا يعني عدم تجنّد تلك الأغلبية في القضايا المصرية.

ولذا نراها تساند إخوانها الزيتونيين التونسيين في كفاحهم من أجل ادخال الاصلاحات على النظام التعليمي الزيتوني في الفترة ما بين 1950-1954⁵ فشارك الطلبة الجزائريون بفعالية في انجاح الإضراب عن الدراسة

¹ المصدر نفسه.

² عبد الحميد بن هدوقة، رسالة الجمعيات، ج 04، الصباح، 23 ماي 1954، ص 03.

³ الأمين بن بلقاسم، جمعية الطلبة الجزائريين تحتفل بعيد العروبة، الأسبوع، 06 أفريل 1947، ص 05.

⁴ مراسلة الشاعر محمد الأخضر عبد القادر الساتحي السابقة.

⁵ انظر علي الزيدي، تاريخ النظام التربوي للشعبية العصرية الزيتونية (1951-1965)، منشورات مركز

البحوث في علم المكتبات والمعلومات، ع 16، تونس، 1986.

والذي دام عاما كاملا ابتداء من أفريل 1950¹. وكذا إضرابات الجوع التي ميّزت هذه الفترة² كيف لا يفعلون ذلك وقد جاءتهم المساندة والتأييد من طرف الشيخ البشير الإبراهيمي³ كما كان لهم ممثلين في لجنة صوت الطالب الزيتوني⁴ التي قادت الكفاح الزيتوني، الشيء الذي زاد من لحمة الإخاء بين الطلبة التونسيين والجزائريين وحتى الليبيين⁵.

نضال الطلبة الجزائريين لا يتوقف هنا بل يتواصل بعد العودة إلى الجزائر لكن بطريقة أخرى حيث تنتظرهم مشاكل جديدة تواجه كل متخرج من الجامع الأعظم⁶، تصبح أمامها مشاكل الدراسة والظروف المحيطة بها لاتساوي شيئا. فالطالب الجزائري ينصدم بالواقع بعد تخرجه من الجامع الأعظم بشهادة التحصيل وسبع سنوات على الأقل من الدراسة، ويعود إلى الجزائر.

هنا يجد الطالب نفسه بين حلين أمان يعمل في ميدان التعليم أو في أي ميدان آخر. وفي الغالب الأعم، فإنه يختار الحل الأول، على الأقل أنه غير بعيد عن ميدان تخصصه، إلا أن التعليم هو تعليم ابتدائي، أي يصبح هو نفسه

¹ محمد العزيز ابن عاشور، جامع الزيتونة: المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1991، ص 146.

² رابح نكاع بن بوزيد السطيفي، تضامن الطلبة الجزائريين مع إخوانهم المجاهدين الزيتونيين، الصباح، 27 فيفري 1952، ص 04، في هذا المقال أيضا تعاطف مع الشعب التونسي في محته أمام القمع الاستعماري.

³ البشير الإبراهيمي، تضامن وتأييد، الزهرة، 29 أفريل 1950، ص 02.

⁴ محمد العزيز ابن عاشور، المرجع السابق، ص 145.

⁵ مراسلة الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السانحي السابقة.

⁶ اعتمدت على مقال الجنيد خليفة، قُلُق المصير، الصباح، 27 جوان 1954، ص 03.

مبدأ أو قريب من ذلك ورغم ذلك فإنه يختاره على أساس أن جوه ثقافي قد يوفر له بعض الوقت للمطالعات الخاصة. هذا لا يعني أن الأمر بكل هذه السهولة فللدخول إلى هذا الميدان يلزمه وساطات ومعارف، وحتى شيء من الحظ لقلّة المناصب. ومع كل هذه القرابين فإن... مهنة التعليم لا تخلو من الشعور بالضيق والكدر... تجعل بعض المعلمين يتمنون العودة إلى عهد التلمذة على ذلك، أما المعلم إذ أراد الزواج فتلك عقبة أخرى - مع ما ذكرنا سابقا من تكاليف الأعراس المشطة -، وقد تكون العائلات المثقفة ثقافة عربية هي الأكثر رحمة بالمعلم ربما لتشابه الظروف أو تماشيا مع المثل الشعب القائل أعطي بتك إلى طالب حتى تجد لها راجل.

وبعد كل هذه المعوقات يتجه المتخرج من الجامع الأعظم إلى البحث عن مهنة أخرى... وهنا يجد نفسه مضطرا لأن يلغي ثقافته كوسيلة لكسب المعاش وكثيرا ما تصادفه هنا أزمة نفسية شديدة [...] تنفجر من استعراضه ماضيه الضائع والظروف الراهنة. لقد جففت شبابه سنوات الدراسة فتركته ضعيفا أصفر كورق التبغ، وكان يحسب نفسه مثقفا فإذا الواقع يريه أنه جاهل يستدر الرثاء، فما هذه الثقافة التي لا تتجاوز لغة ودينا بروح جامدة، ومنهج عقيم، رباه لا ثقافة ولا وسيلة لكسب القوت، وينوي ان يعمل أي شيء يقيه شر الحاجة، ولكن شعورا بما يشبه الكرامة يثور محتجا ساخطا، فأما عمل شريف، وأما موت شريف. وقد ينتهي إلى ذلك العمل وقد ينتهي إلى ما يشبه الموت.

من المسؤول اذن عن هذه المأساة؟. يتبادر إلى اذهاننا أن الحكومة الاستعمارية هي المسؤولة الوحيدة عن هذا المصير - والتي لم تعترف باللغة

العربية لغة حية وإن كان دستور سنة 1947 قد اعترف بها، لكن لم يوضع موضع التنفيذ - إلا أن المسؤول الثاني هو الطالب نفسه، بقي سني الدراسة لا يرغب أن يفكر كثيرا في مستقبله، ولعل السبب في ذلك هو خوفه من هذا المستقبل، وقد علمه مزاجه الحالم أن يواجه المشاكل بالتأجيل والتعويل على الظروف. وقد غاب عنه أن الظروف ليست تلقائية، ولكن الإنسان هو الذي يولدها فلا يفاجئ إذافاق من حلمه بحقيقة الحياة فيكون رد فعله أن... ينكس على عقبيه مذموما مدحورا¹. كان عليه أن يعرف أن الثقافة لا تكتسب بالمعاهد، بل بالمجهود الشخصي، وما المعاهد سوى أجواء مساعدة. ولو عرف هذا جيدا لكان يجد العزاء في ثقافة حية أوسع من الدين واللغة. إلا أن هذا الإحساس بالنقص في التكوين الزيتوني لم يتحول إلى إساءة إلى جامع الزيتونة، بل تواصل الاعتزاز والدفاع عنه في كل الظروف وضد كل الخصوم.

2. الدفاع عن الزيتونة

للزيتونة في قلوب الجزائريين مكانة خاصة، نظرا للدور الذي لعبته في تكوين الطلبة الجزائريين في العلوم الشرعية واللغة العربية، مما أسهم في محافظة الجزائر على هويتها العربية الإسلامية، من خلال تدعيم الحركة الإصلاحية للشيخ عبد الحميد ابن باديس وأعضاده، لذا كانت لهم حساسية نحو أي حركة تمس مقام الزيتونة وكانت تقابل بردة فعل عنيفة.

¹ عبد الله حموش، الأبد المجهول، الأسبوع، 21 نوفمبر 1955، ص 06.

اتخذ الجزائريون صف الطلبة الزيتونيين المطالبين بالإصلاحات لتعصير التعليم الزيتوني سنة 1951 - خصوصا - الشيء الذي أغضب الحزب الدستور الحر الجديد المشارك في حكومة محمد شنيق التفاوضية، ووصل الأمرين الطرفين إلى حد الصدام الجسدي.

لأن الحزب اتهم الطلبة بأنهم يعطلون القضية الوطنية ويعرقلون سير المفاوضات بالهاء الحكومة التفاوضية بمشاكلهم الثانوية التي يثيرونها باستمرار...¹ بل الأكثر من ذلك التصريحات المنسوبة لعلي بلهوان التي يعتبر فيها علماء الزيتونة مصاييح الظلام وطلبتة حجرة عشرة في طريق تنفيذ برامج الحزب².

وقد حزن الجزائريون لما اعتبروه محاربة للزيتونة وإصلاحات الزيتونة وأشبال الزيتونة لأن زيت الزيتونة لا يضيئ على التونسيين فقط بل نحن [الجزائريين] أيضا نستضيء بنورها³، فالجزائر... مدينة للزيتونة وأهلها، فعلى كواهلهم بني عرش نهضت [ها]... لهذا فإن... أفواج الزيتونة هم دائما وأبدا الحاملين لمشعل الاستقلال الثقافي والسياسي من عهد بعيد...⁴ فكيف تحارب الزيتونة وتهاجم؟ إنها مكيدة نصبت ليس لتونس فقط بل لخمسة وعشرون مليون من سكان المغرب العربي⁵.

¹ علي الزيدي، تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية (1951-1965)، ص ص 125-127.

² نصرا إن للبيت رب يحميه، الأسبوع، 23 جويلية 1951، ص 07.

³ عبد الجليل السعودي، بلاؤنا جميعا بالاستعمار، الأسبوع، 19 فيفري 1951، ص 10.

⁴ ع، ج، روح الوفاء للزيتونة تتدفق، الأسبوع، 09 أفريل 1951، ص 02.

⁵ نصرا، المصدر السابق.

تركز الهجوم على شخص علي بلهوان معتبرين تصريحاته إهانة للجهاد
الزيتونة الإعلام... لذا فهم يستنكرون هذه التصريحات¹ التي لم يستغربوها،
إذ لم تكن الأولى. إنما أعادوا إلى الذهان تقريره في اجتماع طلبة بشمال أفريقيا
سنة 1936 بنادي الترقى بالجزائر العاصمة. كان تقريره من أوله إلى
آخره... طعن وشم وازدراء بجامع الزيتونة وبعلمائه وتلامذته، وقد صرح
ببعض عبارات انزعه [الكلام لصاحب المقال] على تسطيرها [...] الشيء الذي
تبرم منه كافة الحاضرين... الأمر الذي استدعى تدخل توفيق المدني لتفنيده ما
قاله الأستاذ بلهوان².

وأنهم الحزب الدستوري بأنه هو منظم القلاقل في أوساط الطلبة : من
سطو واعتداءات على الطلبة والعلماء، معتمدا على تأييد الوزارة التي
أدخلت طلبة الزيتونة السجن كما لم يدخلوه في عهد الظلم والظلام³. بما
يعني اتهامه بطريقة ضمنية بموالات الاستعمار وتحوله إلى أداة قمع يحركها في
الخفاء للقيام بما لم يقيم به بطريقة ظاهرة.

ولعل محاولة منهم لحصر مضاعفات الخلاف أو لشعورهم بالعجز عن
فعل أي شيء لم يجد الجزائريون إلا مقولة عبد المطلب لأبرهة الحبشي إن
للبيت رب يحميه⁴.

¹ المصدر نفسه.

² نصر، المصدر السابق.

³ عبد الجليل السعودي، المصدر السابق.

⁴ نصر، المصدر السابق.

3. جمعية العلماء

أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيزا كبيرا من الكتابات الجزائرية في الصحافة التونسية، نظرا لدور وأهمية هذه الجمعية في الساحة الجزائرية.

كتب أبناء وأنصار الجمعية كثيرا عن أعمالها، ومجدّوا هذه الأعمال بالانشائية التي حققتها الجمعية، فبعد عودة الطلبة من الزيتونة ومن المشرق أيضا، وتكوّنت الجمعية سنة 1931 في ظرف لم يكن اختياره اعتباطيا، كرد فعل عن تأثيرات خارجية¹ بل أن ذلك راجع بالخصوص إلى ظروف الجزائر الداخلية. فقد رسم أنصار الجمعية لنا من خلال كتاباتهم صورة لجزائر متخلفة، مستحکم فيها الجهل والخرافات². ناهيك عن التحكّم الاستعماري في كل صغيرة وكبيرة، حتى في كيفية كفن ودفن أموات المسلمين³. ومن ذلك صوروا لنا حجم الرهان الذي كان على هؤلاء الطلبة أو - كما سموهم العلماء الأحرار⁴ - رفعه.

هذا الرهان المتمثل في التخلف المادي والعقلي للشعب الجزائري، فاختر هؤلاء البدء بمحاربة التأخر العقلي للجزائريين، مؤمنين بأنه لن ينفع

¹Redouane AINAT-TABET et Fanny COLONNA (pré.), Omar CARLIER, A.E.K. DJEGHLOUL, Mohamed EL KORSO, « lettrés intellectuels et militants en Algérie, 1880-1950 », éd. O.P.U. - URASC, Alger-Oran, s.d, n.p.

²محمد الأكلح اليعلاوي، جمعية العلماء هيئة عاملة. الأسبوع، 27 مارس 1949، ص 03.

³الأمين عبد العزيز أثر المسجد في الحياة الإسلامية، الأسبوع، 25 جويلية 1949، ص 07.

⁴الفضيل الورتلاتي، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1992، ص 41.

أي إصلاح مادي في حال تم تغييب الجانب العقلي والعملية من هذه العملية¹. فتوجهت جمعية العلماء إلى ميدان التعليم، فصارعت الجهل حتى صرعته - على حد قول أحدهم² - بفضل ما أسسته من معاهد العلم ومدارس التعليم في المدن والقرى والمداشر ويفضل خطبائها في المحافل والنوادي والمجتمعات وبمجهود صحفها ونشرياتها...³ وكذا بعثاتها إلى الخارج خصوصاً مصر، سوريا، العراق، الكويت وطبعاً تونس⁴.

وأضافت إلى ذلك عملاً آخر هو الاتصال المباشر بالجزائر عن طريق الوفود التي ترسلها من حين إلى آخر إلى أنحاء القطر للتعرف إلى حاجياته ونصحه وإرشاده⁵.

كما ذكرت جمعية العلماء الشعب الجزائري أفراداً وجماعات بوسائلها المفيدة تاريخ الآباء والأجداد، وعزة الاسلام وشرف الاسلام مذكرة إياهم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فعرفوا قيمة أنفسهم وأحلوها المحل اللائق بها وأصبحوا ينشدون حياة الشرف والسؤدد لا يبغون بها بديلاً⁶.

¹ الحفناوي هالي، هذه هي جمعية العلماء، الأسبوع، 20 مارس 1950، ص 10.

² أ، ع، أثر الحركة الإصلاحية بالجزائر، الأسبوع، 20 فيفري 1950، ص 05.

³ المصدر نفسه.

⁴ م. د، المرحوم الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ج 2، الأسبوع، 25 أبريل 1955، ص 07.

⁵ العربي التبسي، الحياة الدينية بالجزائر، الأسبوع، 17 ديسمبر 1948، ص 02.

⁶ أ، ع، المصدر السابق.

حفظ الشعب هذا العمل للجمعية فأيدتها في أعمالها الاصلاحية¹ إما بالانخراط في نشاطاتها أو بالمشاركة بالمال، خاصة وان الجمعية تعتبر أنها واضحة في معاملاتها المالية. فالشعب في هذه الحالة ... لا يحاسبها على الأموال في أوراق بطاقات بين أربعة جدران بل يشخصها أمامها في مؤسسات علمية ودينية². وهذا شيء يعزز ثقة الشعب في الجمعية.

هذه الثقة تجعلها تتكلم من جانب قوة أمام السلطات الاستعمارية، على اعتبار أنها مسنودة بالشعب الجزائري، لتطالب بالحاح بفصل الدين الاسلامي عن الدولة اللاتينية، بمساجده وأوقافه، وقضائه حتى يكون المسجد صلة روحانية بين العبد وربّه لا دسيسة، وحتى تعود للأوقاف حرمتها، ويصب فيضها في إنماء الدين وتوسيع مشاريعه لا في خزائن الدولة وجشعها، وحتى يسترجع القضاء الاسلامي هيئته المفقودة، وجلاله الموهوب، وشموله العام، وطرق احكامه الناصعة التي لا ميز فيها ولا عباة³.

الملاحظ في هذه المطالب أنها تقتصر على الجانب الديني فقط. والسبب نجده في هذه الكتابات، فالجمعية - حسب أحمد رضا حوحو - فوق السياسة وفوق الحزبية، وإنما تطل عليهما من برجها العالي لتقول للمحسن أحسنت

¹ أحمد رضا حوحو، جمعية العلماء في مرحلتها الثانية أو بين الهدم والبناء، الأسبوع، 24 أوت 1947، ص 03.

² العربي النسي، المصدر السابق.

³ م، د، المرحوم الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ج 1، الأسبوع، 18 أبريل 1955، ص 04.

وللمسيء أسات¹. وفي نفس الوقت لا دخل لها في الأمور النقاوية² والغاية من ذلك أن تترفع عن الخصومات للوصول إلى الهدف الأسمى³. ورغم إشارة بلقاسم سعد الله إلى تشابه إدارة الجمعية مع طريقة الحبيب بورقيبة في إدارة الحزب الحر الدستوري التونسي⁴ فإن ذلك بالنسبة للجمعية لا يخرج عن نطاق التشابه.

لم يعنى عدم تداخل الجمعية في الأمور السياسية من مضايقة السلطات الاستعمارية والتي نددت بها كل الكتابات التي اطلعت عليها⁵. فبالنسبة لهذه الكتابات، العدو الأول للجمعية وللشعب الجزائري، هو الاستعمار، فمرة يظهر بوجهه السافر، حين إصداره مثلا قرارات المنع من التعليم في المساجد وقصر هذه الأخيرة على الصلوات الخمس، أو حين تضييقه على النوادي الثقافية للجمعية⁶، بعدما تحولت بطريقة أو بأخرى إلى أماكن التقاء ومناير ثقافية وسياسية⁷. ومرة مستترا خلف هيآت وأفراد من الشعب الجزائري، والذين اعتبروا مجرد حشرات تمتص دم الأمة، وأكل لحمها⁸ أو

¹ أحمد رضا حوحو، المصدر السابق.

² العربي التبسي، ندوة صحفية، الأسبوع، 05 ديسمبر 1948، ص 03.

³ المصدر نفسه.

⁴ بلقاسم سعد الله، على هامش موضوع البعثة الجزائرية العراقية لجمعية العلماء، الزهراء، 26 أكتوبر 1952، ص 02.

⁵ انظر المقالات السابقة.

⁶ العربي التبسي، الحياة الدينية بالجزائر.

⁷ Mohamed EL KORSO, "structures islamistes et dynamique culturelle dans le mouvement national algérien, 1931-1954 in Omar CARLIER, op cit, p 56.

⁸ الحفناوي هالي، المصدر السابق

قوة الجمود الذين هم الطرقيون¹ - الذين تعرضوا إلى هجوم عنيف من طرف أنصار الجمعية - وكذا المثقفين بالثقافة الفرنسية والذين في نظر مؤيدي جمعية العلماء - ينافسونها قيادة الأمة إلى بر الأمان². وفريق ثالث ناصب الجمعية العداء - عن حسن نية وعن جهل - جعلته يجارب الإصلاح الذي جاءت به، حفاظا على عادات الآباء والأجداد وانتصارا لما يراه الدراويش في المنام³. ومن جهة أخرى أتهمهم [بضم التاء وكسر الهاء] مصلحو جمعية العلماء بأنهم ملحدون، زنادقة، وأنهم كفره مارقون، وأنهم وهابيون يكرهون النبي وآل النبي (صلى الله عليه وسلم)، أو أنهم صنائع دول اجنبية ماجورون، شيوعيون، نازيون، وقاشيون وانكليز والنخ⁴. وحين ما لم تنجح هذه الطرائق، حاولوا إعداد الجمعية التشكيك في قدرة أعضائها على استخلاف الإمام بن باديس عقب وفاته⁵ أو بكل بساطة نسبة أعمال الجمعية لأنفسهم قبل تشويهها، ومن ثم ادعاء خيانة الجمعية⁶. إلا أن كتاب هذه المقالات كانت لهم ثقة عمياء في انتصار الجمعية على أعدائها.

ويفخرون بأنه بات من يزور الجزائر يرى بسهولة - أينما حلّ - أثرا من آثار الجمعية الملموسة الخالدة، فإذا لم ير شيئا فذلك لأنه لم يبحث عنه أو صدّ

¹ أحمد رضا حوحو، جمعية العلماء في مرحلتها الثانية ج 1، الأسبوع، 17 أوت 1947، ص 03.

² المصدر نفسه.

³ الفضيل الورتلاني، الجزائر النائرة، ص 141.

⁴ المرجع السابق، ص 142.

⁵ الحفناوي هالي، المصدر السابق.

⁶ المصدر نفسه.

عنه صُدودا بينما كان قبل سنة 1931 لا يشعر حين يزوره إلا أنه في وطن إسلامي مختصر¹.

هؤلاء الكتاب ولتأكيد هذه النتائج - رأوا من واجبهم دعوة الشعب الجزائري لالتفاف حول جمعية العلماء، ملاذ في الأزمات إلى أن ينقضي عهد الاستبداد والتعاسة لأنه بالنسبة لهم عزة الشعب من عزة جمعية العلماء² حامية الهوية الجزائرية والدين الإسلامي.

4. الإسلام وتدخل الإدارة الفرنسية في الأمور الدينية للجزائريين

الإسلام في الجزائر دين راسخ احد ركائز الذاتية الجزائرية وذلك منذ ما يفوق 14 قرنا مضت، وهو السلاح الذي رفع في وجه الغزاة حفظا لحرية هذا البلد.

اعتزاز الجزائريين الكبير بالإسلام جعلهم ينوهون به كمنقذ للبشرية من دياجير الجهل ومن ظلم قوبها لضعيفها³. ولم يتوان الإسلام لحظة واحدة عن مؤاسة البشرية المرزوءة والبر بها في جميع ما يتابها من ويلات الحدثان [...] دون تفرقة بين شيوخها وشبابها، رجالها ونسائها [...] فعاملهم الإسلام كلهم معاملة جميلة وأخذ بأيديهم جميعا إلى حيث النجاة والسلامة ملاحظا في ذلك الرفق بالإنسانية والرحمة بها إذ لا ملاذ لها مما تمرغت فيه من

¹ المصدر نفسه.

² العربي التونسي، الجزائر في العهد الجديد، الأسبوع، 19 أبريل 1954، ص 05.

³ أ.ع، المصدر السابق.

حياة البؤس والشقاوة سوى عطف الاسلام...¹. وهذا سر الانتشار الواسع والسريع للإسلام في بداياته فقد كان... يعتمد في جميع فتوحاته الواسعة على مؤساة الضعفاء وإدخال الطمانينة على نفوسهم القانطة من عطف الإنسان على أخيه الإنسان² الشيء الذي يجعله... لأن يكون هو المتبع إلى يوم الدين...³.

لذا فمناذاة الجزائريين للتمسك بالإسلام مبررة واعتبارهم أن نجاتهم في الاتحاد الديني،⁴ للوقوف أمام الاستعمار الذي عاث في الأرض فسادا لأن الاسلام هو القوة الدافعة للمقاومة. فهو... الذي بقي ثابتا يكافح الخصوم فيغلبهم وينتصر وإن انهزم عداء من المكافحين...⁵.

يادر الاستعمار لتفادي هذه الوضعية في الجزائر إلى إضعاف الاسلام من خلال التجريد من أوقاف المساجد والمدارس، الشيء الذي يؤدي إلى تضيق فرص التعليم أمام المسلمين⁶ وبالتالي قطع الصلة بين الاسلام والمسلمين تدريجيا. ومن ثم التحكم في الضمائر بتشجيع الانتهازيين لشغل مناصب الإمامة والصدارة، وتحويل المجالس العلمية والمواعظ الدينية إلى حلقات هرولة ودروشة. واعتقاد في بركة الشيخ بأنه هو الواسطة بين الناس وربهم⁷

¹ الأمين عبد العزيز، المؤسسة في الإسلام الأسبوع، 02 جانفي 1950، ص 10

² المصدر نفسه.

³ محمد الشائب الذراع، الإسلام انقلاب تجديدي الأسبوع، 21 جوان 1954، ص 7.

⁴ ابراهيم بن محمد خرفي، نجاتنا في الاتحاد الديني، الأسبوع، 10 ديسمبر 1951، ص 12.

⁵ محمد المنصوري الغاسري، الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، الأسبوع، 14 مارس 1949، ص 3.

⁶ المصدر نفسه.

⁷ م.د. المصدر السابق.

بل ويرى آخرون أن هذا غير كاف في نظر الاستعمار فلا بد أن يكون التدمير ذاتيا ومن داخل الجسم المراد تحطيمه، وكانت وسيلته في ذلك النخبة التي كونها وفقدت في الغالب-صلتها بالإسلام، مما يبعث الشك في النفوس¹ والضعيفة في القلوب والفرقة في الصفوف.

كان لابد من المقاومة فمتى... دب الفشل في أمة من الأمم وطاشت أحلام ابنائها نحو الشهوات والميول النفسية وغضت طرفها عن الأخلاق الفاضلة الإسلامية ونبتتها إلا وأصبحت عرضة للآزمات والنكبات في مختلف فروع الحياة...². النتيجة الانحلال والاضمحلال والهبوط إلى مرتبة العبودية وذلك ما يريده الاستعمار بتدخله في كل كبيرة وصغيرة تخص الدين الإسلامي وشعائره.

إن مطالبة الجزائريين بفصل الدين الإسلامي وأوقافه عن الدولة الفرنسية له ما يبرره، نظرا للتصرفات الإدارية المخجلة في حق المسلمين وشعورهم الديني.

يحكي عبد الرحمان العقون عن مهزلة رؤية هلال ذي الحجة لعام 1948 حيث ألهلال الجزائري - كما سماه - لم يظهر لا يوم تسعة ولا يوم عشرة ذي الحجة... فكننت ترى الشعب الجزائري المسكين كأنه يملل وينحل مختلفة فمته المحتفل بيوم العيد ومنه الصائم ليوم عرفة، ومنه المحتفل في بيته، والمسك أمام الجمهور خوفا من أعوان الحكومة الفرنسية التي

¹ محمد شائب الدراع، المصدر السابق.

² إبراهيم بن محمد خرفي، المصدر السابق.

ساعدتها الظروف [...] على التداخل [...] حتى في صلاة العيد وذبح الأضاحي، وأنك لترى هذا بالأسف في البلد الوحيد والقرية الوحيدة وترى من صلى صلاة العيد يومين متعاقبين، ومن صلاها في اليوم الأول خفية وفي الثاني علنا بحسب تشدد وتسامح رجال الإدارة. وقد اشتمل لدى العموم أن يوم الخميس هو يوم العيد الرسمي للحكومة [...] بناء على كمال الهلال الجزائري [...] فحجزت ذبائح المحتفلين بيوم الأربعاء وأوقف المصلون وأغلقت مساجدهم وحررت التقارير بكثير من المحتفلين في كثير من البلدان [...] أما يوم الأربعاء فهو يوم العيد الاسلامي الذي ثبت في كثير من البلدان الاسلامية...¹

ولسحب البساط من تحت اقدام السلطات الاستعمارية يجب توحيد الرؤية على مستوى العالم الاسلامي وذلك بتركيز محطات لرصد الأهلة في نقاط معينة ومن هناك تنشر نتائج الرصد على كامل العالم الاسلامي بواسطة إذاعات لاسلكية تؤسس لهذا الغرض.

وإلى حين تنفيذ هذا الاقتراح - والذي لم ينفذ إلى اليوم وما زالت حالة التشرذم قائمة - فإن السيد عبد الرحمان العقون حمل جمعية العلماء المسؤولية كاملة عن افساح المجال للاستعمار للتدخل مرة أخرى في ممارسة الشرائع الاسلامية والتلاعب بها لأنها سكنت عن الأمر. ولم تقل الناس من حيرتهم، فأخلت باختصاص هام من اختصاصاتها².

¹ عبد الرحمان العقون العالم الاسلامي ومسؤوليته ازاء المواسم الاسلامية، الأسبوع، 14 نوفمبر 1948.

² المصدر نفسه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، حتى الحج نال نصيبه من التدخل¹... فلا يحج الحاج حتى تجس حرارة إيمانه بالولاء، أما المغضوب عليهم من الإدارة فيكفي إذا أرادوا الحج في الماضي أن يتوجهوا شطر دور الحكومة (الولاية العامة) ليمسحوا بأعتابها ويستزلون رحمتها ويستدررون رضاها فإذا رضيت وهيئات أن ترضى فقد كان حجهم مبرورا وإلا كان حجهم في الحج مقبورا².

وحتى القضاء الاسلامي الذي لم يبق له الاستعمار إلا الأحوال الشخصية وحتى في هذه الدائرة الضيقة حاول التدخل فيها من خلال قانون 23 نوفمبر 1944³ الذي يبيح للمسلمين الخيار ما بين القضاء الاسلامي والقضاء الفرنسي في كل القضايا⁴. ولم يجد أحدهم إلا أن يعلق كيف يعقل هذا في بلد اسلامي⁵ خاصة وأحكام القاضي المسلم لا بد لها من مصادقة قاضي المخالفات الفرنسي⁶ فكيف وقد جاء ينازعه آخر ما تبقى له من صلاحيات، اذن لم يبق إلا الثورة لكن ليبدأ بتحضير الأرضية لذلك تثقيف المجتمع لرفع درجة وعيه.

¹ C.F. Claude COLLOT: les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830-1962), Ed. GNRS - O.P.U., Paris-Alger, 1987.

² م.د، النهضة الإصلاحية في الجزائر.

³ لائحة جمعية القضاء الإسلامية الأسبوع، 18 ماي 1947، ص 3

⁴ م.د، المرحوم الشيخ عبد الحميد ابن باديس.

⁵ المصدر نفسه.

⁶ لائحة جمعية القضاء الإسلامية، المصدر السابق.

5. الثقافة والتعليم

لقد عظم الجزائريون العلم، وسعوا إليه بكل السبل، فقد رأوا فيه المخرج مما هم فيه من ضعف وهوان. إنه زمن جهاد القلم¹ وهو الجهاد الذي كان متوفرا لهم في تلك الفترة السابقة للثورة التحريرية، فلولا لتعطل الفكر البشري ولما صلح المجتمع الإنساني².

لن يتحقق ذلك إلا إذا قدس العقل، وحرر من قيوده التي تعيق انطلاقته نحو العلم الحديث مما يعني أنه ليس هناك... أبواب الاجتهاد موصده... أو ناحية من نواحيه قد قالت فيها البشرية السالفة كلمتها الأخيرة، وما على الحاضرين إلا التقيد بالمقدرات المقررة من قبل...³. لذا يجب فتح أبواب الاجتهاد على مصراعيه باحترام العقل، لأن... الشعوب التي لا تحترم العقل لن يحترمها أحد، وستظل أبدا مباءة تعج بالسفه والحماسة، ونهباً يتربص بها مستعمر ناهب...⁴، فلا تحرر إلا بتحرير العقل⁵.

لقد فهم الجزائريون هذه الحقيقة بمختلف أوجه الفهم وسعوا إلى إتاحة فرص التعليم لأقصى عدد ممكن من أبناء الشعب، خاصة بعد فشل المهمة

¹ العربي الوائلي، القلم وأثاره في الحياة، الأسبوع، 2 نوفمبر 1953، ص 2.

² المصدر نفسه.

³ عبد الله شريط، ثقافة الشعب، الصباح، 31 أوت 1951، ص 04.

⁴ خالد محمد خالد، مواطنون لا رعايا، نقلا عن عبد الله شريط، ثقافة (شعب)، الصباح، 24 أوت 1951، ص 04.

⁵ المرجع نفسه.

التحضيرية - المزعومة - لفرنسا، فحتى قبيل الحرب العالمية الثانية لم يتمدرس من أصل 1250000 طفل جزائري يتراوح سنهم ما بين 06 سنوات و 14 سنة، في المدرسة الفرنسية إلا 110.000 طفل¹. وإلى حدود سنة 1954 لم تصل النسبة المتمدرسين إلا إلى 14% بالكاد². وهذه النسبة في حد ذاتها لا تعكس الواقع، فإن كان من الممكن أن يجد 05/1 من الأطفال الذكور، و 16/1 من الإناث مقعدا في المدرسة الفرنسية في المدن، فإن هذه النسبة تنخفض إلى 150/1 أو 70/1 من الأطفال في الأرياف³. في هذه الحالة المزرية كان على الشعب الجزائري أن يعتمد على جهوده الخاصة في هذه المهمة. وقد قر في وعيه أن الاستعمار... يفتح المدارس الفرنسية في وجه الناشئة التي تزين عقولهم الساذجة وتغلق بصائرهم الطيبة، وتشحن أفكارهم بالحفائق المظلمة، وتتشعش أدمغتهم بالأوهام. هذا بالنسبة للناشئة المحظوظة، أما الأغلبية الساحقة فلا تصلح للتعليم فلتدع فريسة للجهل ونهباً للتشرد، ومستنقعا للتدهور الأخلاقي ومجالا للأوبئة، ومسانمة للذئاب...⁴.

كانت كلّ المناسبات صالحة لاستثارة همة الشعب لتدعيم هذا المنحني العمل على توفير التعليم لأكثر عدد من الأطفال]. فحفلات افتتاح

¹ Charles- André JULIEN, l'Afrique du Nord en marche : Nationalisme musulmans et souveraineté française, Ed. Julliard, Paris, 1953, p 39.

² Charles Robert AGERON, histoire de l'Algérie contemporaine, éd. P.U.F. col « Que sais-je? », Paris, 7^{ème} édition, 1980, p 83.

³ Germaine TELLION, op .cit, pp 68-69.

⁴ م. د. النهضة الإصلاحية في الجزائر، الأسبوع، 16 ماي 1955، ص 06.

المدارس¹ وكذا الأعياد التي تحيي داخل هذه المدارس² وكذا استقبالات البعثات العلمية إلى الخارج قبل سفرها³، منابرا لدعوة الشعب للتضحية في سبيل تعليم أبنائه وانتشاهم من حماة الجهل. وحتى الجهود الفردية في انشاء المدار الحرة كانت دعاية فعالة في هذا المجهود⁴، بل حتى ذكريات المدارس الشهيدة وصور الأطفال الذين كانوا بين جدرانها يتلقون أوليات القراءة والكتابة. وقد تشرّدوا بعدما أغلق الاستعمار مدارسهم، استغلت في هذه المعركة، معركة العلم ضد الجهل⁵.

لم تكن هذه المعركة سهلة ولا قصيرة. فبعيدا عن العراقيل المادية لنقص المال اللازم للاستجابة للعدد الهائل من الأطفال الذين في سن التمدرس. وإذا غضضنا البصر عن نوعية هذا التعليم الذي لا يتجاوز المستوى الابتدائي، فإن أكبر مشكلة هي موقف السلطات الاستعمارية من التعليم العربي جملة وتفصيلا، فرغم ما جاء بدستور 1947 من قرارات ليبرالية كالاقرار بالغة العربية لغة رسمية، إلا أن الواقع كان غير ذلك. حيث أن الإدارة الفرنسية تصرفت عكس ما جاء في الدستور، فحاربت اللغة العربية كأشد ما تكون المحاربة، وبطرق قانونية - في الغالب الأعم - مستعملة في

¹ أبو الأنوار أبو شعيب، الميلية تزدهر، الأسبوع، 15 فيفري 1948، ص 03.

² الصالح الجموعي الاحتفالات بالمولد بقسنطينة، الأسبوع، 09 جانفي 1950، ص 11.

³ بلقاسم سعد الله، على هامش موضوع البعثة الجزائرية العراقية لجمعية العلماء، الزهرة، 26 أكتوبر 1952.

⁴ معمر بوقصة، المدرسة المحمدية بين الأمس واليوم، الأسبوع، 12 مارس 1951.

⁵ محمد الصالح بن علي بوزغاية، من بوادر النهضة بالجزائر، الأسبوع، 20 أفريل 1947، ص 03.

ذلك الرخصة الضرورية لمزاولة مهنة التعليم العربي وفتح المدارس الحرة، سلاحا فعالا. ووصلت الإدارة - في حربها مع التعليم العربي - إلى حد غلق مدارس رخصت لها قبلا للعمل¹، وناهيك عن التي لم ترخص لها... فتعليم اللّغة في قاموس الاستعمار يستوجب انزال العقاب الصارم، والعذاب الشديد على من تحدّثه نفسه بذلك...² لذلك فقد... شهدت المحاكم [الفرنسية] في الجزائر مناظر مخجلة يساق فيها معلم العربية في موكب اللصوص والقتلة والمجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد، وقد تنال رحمة القضاة الفرنسيين بعض القتلة واللصوص، ولكن ما جربت يوما أن تنال معلم اللغة العربية ابدا...³، وكانت الأحكام قاسية والمتهمون كثير، فقد جاء في تقرير لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنه توبع 27 معلم اللغة العربية سنة 1951 وحدها أمام المحاكم بتهمة التدريس دون رخصة⁴. وكانت تضاعف العقوبة في حالة اشتمام أي بادرة بالإخلال بالسيادة الفرنسية على الجزائر، فعاقبت أحد معلمي اللغة العربية بـ 04 سنوات سجنا نافذة و25 000 فرنك غرامة لأنه علّم تلامذته نشيدا تحريزيا⁵. إنه عمل بطولي - في هذه الحالة - أن تكون معلما للغة العربية، تستحق عليه أن ترفع لمستوى عظماء الجزائر الذين كانت الجزائر في حاجة إلى الاحتفاء بهم

¹ Claude COLLOT: op. cit, p 325.

² م. د. المصدر السابق.

³ الغضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، ص 90.

⁴ Claude COLLOT: op. cit, p 325.

⁵ Ibidem.

للمحافظة على الوعي بالهوية الجزائرية، من أن ندوب وتندثر. فكان لابد من الكتابة عنهم للإشادة بخصالهم.

6. عظماء الجزائر

لكل شعب من شعوب العالم عظماء غير أن الاحتفاء بهم يختلف من مكان إلى آخر. وقد دعا البعض من الجزائريين إلى الاهتمام بعظماء الجزائر لما في ذلك من أثر في ... تكوين الشباب واستقامة اخلاقهم [...] مما يجعلهم قادرين على تحمل أعباء الحياة الثقيلة... أما بحس العظماء حقوقهم فيعثر الشباب ... على الزهد في طلب معالي الدرجات، وعزائم الأعمال التي من دابها أن تتخذ ذكر اصحابها في كتاب العظماء... وحدثوا إخوانهم من أن ... أما انهار ملكها من علي وسقطت إلى الحضيض بسبب استخفافها بقيم رجالها العاملين المجاهدين وأشاروا بأن إحقاق ما للعظماء من فضل على الأمة يعتبر جناية ضد الصالح العام في الغرب¹.

لذا حاول الجزائريون - قدر استطاعتهم - إقامة ذكريات العظماء من الشعب الجزائري. وفي الفترة التي ندرسها (1947 - 1955) هناك شخصيات معينة استأثرت بالاهتمام وبأقلام الجزائريين في الصحافة التونسية، وكانت شخصيتا الشيخين عبد الحميد ابن باديس ومحمد مبارك الميلي الأكثر حضورا.

¹ الأمين عبد العزيز، قيم الرجال المجهولة، الأسبوع، 12 ديسمبر 1949، ص 05.

وقد عظمت شخصية ابن باديس إلى حد أن يقول قائل ... ونكاد لا نفرق بين عبد الحميد والشعب الجزائري، فإنما يتكلم ويكتب عن شعب بأسره، إذ كان عبد الحميد أمة في شخص¹. بل وصل الأمر إلى تشبيهه - فيما لاقاه في دعوته الإصلاحية من عراقيل ومصاعب - بما لاقاه أولي العزم من الرسل². وأشادوا بحكمته، وثباته على الحق في دعوته، وبأنه من ... النخبة الصالحة من العلماء والمسلمين المجاهدين الذين يبعثهم الله للأجيال بين الفترة والأخرى ليتشلوا الإنسانية من حمة الضلالة وبرائين الغواية وظلام الزيغ...³.

إن الإمام عبد الحميد ابن باديس كان صدى للحركة الإصلاحية لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده⁴، ويفخر الجزائريون بأنه رغم اصطدام الإصلاح في الجزائر ... بمقاومة عنيفة خرجت من نطاق الردود في الصحف ومنابر المساجد إلى الميدان العام حتى كان لا يجتمع جزائريان إلا والخلاف ثالثهما... فإن الإمام تجنب العنف وإلا كان الأمر إلى غير ما آل إليه ورائده قول الرسول صلى الله عليه وسلم 'اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون'⁵.

وكان الإمام عظيما حتى في موته، إذ يقول للحافين به أوقفوني فإنني لا أريد أن أموت راقدا كما يموت البعير⁶. وذلك رمز لا يمكن اغفاله لفهم

¹ الحبيب بن ناسي، الإمام عبد الحميد ابن باديس، الأسبوع، 13 أفريل 1953، ص 07.

² الأمين عبد العزيز، رقفة على شاطئ بحر حياة زاخرف، الأسبوع، 30 جانفي 1950، ص 03.

³ م.د، النهضة الإصلاحية في الجزائر، الأسبوع، 16 ماي 1955.

⁴ الأمين عبد العزيز، رقفة على شاطئ بحر حياة زاخرف، الأسبوع، 30 جانفي 1950.

⁵ الحبيب بن ناسي، الإمام عبد الحميد ابن باديس، ج 1، الأسبوع، 20 أفريل 1953، ص 02.

⁶ الأمين عبد العزيز، المصدر السابق.

شخصية أمام ابن باديس وهي شخصية توازئها - عند الاصلاحيين -
شخصية الشيخ محمد مبارك الميلي.

فبالنسبة إليهم أن الحرب العالمية الثانية كانت كارثة على حركتهم
الاصلاحية. ففي بدايتها خسروا روح جمعية العلماء، وفي نهايتها خسروا
دماغها المفكر¹. وقد وصفوا مبارك الميلي بأنه كان متضلعا في جميع العلوم
والفنون العربية، واسع الاطلاع على علوم التفسير والحديث، كثير الاعتماد
على الاستنتاج العقلي، والتحليل المنطقي، له في الكتابة أسلوبا خاصا به.
بجائته في المسائل التي تتصل بالاعتقاد [...]. صريحا في الحق لا تأخذه هواده في
الإصداغ بما يمليه عليه وجدانه، شديدا في المقاومة والنضال، لا يُطمعه
الترغيب، ولا يُخيفه الترهيب، قوي الإيمان بمبده، مجدا في تبليغ رسالته
العلمية والاصلاحية إلى أمته².

ومن ناحية أخرى نُوهُ بمجهوده التأليفية في كتابيه تاريخ الجزائر ورسالة
الشرك ومظاهره، وأعتبر من معالم عبقريته وتفرد³.

ولخص محمد. ط. حميدات مبدأ الشيخ مبارك الميلي في أنه أخضع نفسه
لطلب العلم، وأخضع العلم للحقيقة، وأخضع الناس للحقيقة⁴.

¹ احمد بوعروج، الذكرى الثانية للشيخ مبارك الميلي، الأسبوع، 09 مارس 1947، ص 03

² علي مرحوم، ترجمة الشيخ مبارك الميلي بمناسبة ذكره الثانية، الأسبوع، 27 أبريل 1947، ص 03.

³ عبد الحفيظ الجنان، المرحوم الشيخ مبارك الميلي بعد مرور خمس سنوات على وفاته، الأسبوع، 03
أفريل 1950، ص 11.

⁴ محمد. ط. حميدات، الذكرى الرابعة للشيخ مبارك الميلي الذي أخضع العلم للحقيقة، الأسبوع، 20
مارس 1949، ص 06.

وثاني شخصيات أخرى أقل أهمية لم يكتب عنها إلا مقال واحد لكل شخصية كأيي يعلى الزواوي¹، والشيخ الحرشي [أو الحرفي] من مروانة²، وشكيب أرسلان³، وأخيرا القائد بورغدة⁴.

الملاحظ أن الشخصيات المحتفى بها إنما هي من الشخصيات التي غادرت هذا العالم ومنتيزة بشخصها الديني إلا الشخصية الأخيرة شذت عن هذه القاعدة، فالقائد بورغدة كان ما يزال في وظيفه في خدمة الإدارة الفرنسية. والمقال هنا يعطينا صورة أخرى غير تلك المعهودة عن القياد الجشعين، القساة، أعوان للاستعمار في ظلم بني جلدتهم فيقدم صورة عن شخصية تحاول قدر استطاعتها التخفيف من آلام وغبن من هم تحت نظره. وهذا شيء استثنائي جعلت حتى كاتب المقال يتساءل عن السر الكامن وراء إبقاء الإدارة الفرنسية عليه في وظيفه. ربما هي محاولة لتلميع صورة غير قابلة للتلميع من كثرة الأوساخ التي علتها التي تراكمت عليها منذ بداية الاحتلال والفظاعات التي رافقت عند محاولة خنق مقاومة الشعب الجزائري نهائيا، أو على الأقل حباطه نفسيا كمرحلة أولى.

لعل ذلك جزءا من توارى صورة الأمير عبد القادر في هذه الفترة، والتي لم يكتب عنه فيها إلا مقال واحد⁵ رغم مكانة الأمير في تاريخ المقاومة.

¹ إسماعيل زكري، أبو يعلى الزواوي، الأسبوع، 19 جوان 1953، ص 02.

² الأمين عبد العزيز، عالم وذكراف، الأسبوع، 13 جوان 1949، ص 10.

³ محمد الحسن الورتلاني، ذكرى أمير البيان شكيب أرسلان بنادي الترقى، الزهرة، 21 جاني 1947، ص 01.

⁴ الأمين عبد العزيز، حول بطولة القائد بورغدة، الأسبوع، 05 ديسمبر 1949، ص 05.

⁵ محمد الطاهر حميدات، الأمير عبد القادر، الأسبوع، 22.08.1949 لوت.

واقامة أركان الدولة الجزائرية الحديثة، ربما النص التالي يوضح لنا السبب: لقد حارب الأمير عبد القادر بالأسلحة، وقابل بالسيف فأبلى البلاء الحسن، وكتب في سجل التاريخ صفحة لا تنسى، ولا تمحى، ولكنه بعد أن ذهب كفاحه المادي، وأغمد سيفه الحديدي لم يبق من ذلك كله إلا سطر مكتوب وعبرة محفوظة (تسطير خاص). وماذا عقب ذلك ؟

إنه لم يعقب إلا صدمة عنيفة ورجة نفسية استولت على المشاعر وأخذت العزائم واستمر مفعولها يفتك بالأرض والأبدان، واستولى على العواطف والأفكار أجيالا متتابعة واحقابا طويلة إلى أن ظهرت معجزة الروح والقوة المعنوية [يقصد عبد الحميد ابن باديس¹]. هذا النص يفسر جزئيا الرأي الذي ذهب إليه محمد الصالح الجابري من أن الفترة المدروسة كانت فترة نضال سياسي، مع هيمنة الحركة الإصلاحية - ممثلة في شخص الإمام ابن باديس - على الساحة. ولم تدعو الحاجة إلى التفاخر بالجانب العسكري من تاريخ الجزائر إلا بعد اندلاع الثورة التحريرية² والتي اندلعت في 01 نوفمبر 1954، فقلبت الأوضاع رأسا على عقب، وأثرت على جميع الجزائريين. وهنا في تونس نرى نوعا جديدا من الكتابة، يمكن لنا أن نسميها الكتابة الثورية - إن جاز لنا التعبير - وندخل معها في طور جديد من تاريخ الجزائر.

¹ الأمين عبد العزيز، ولغة على شاطئ بحر حياة زاخرة.

² محمد الصالح الجابري، الأدب الجزائري في تونس : 1900 - 1962، ج 1، بيت الحكمة، تونس.

الباب الثاني

كتابات الثورة بين 1956 و1962

الفصل الأول: بداية الثورة الجزائرية

1. أسباب قيام الثورة

الثورات بحاجة إلى دعاء يعرفون بها ويسمعون صوتها إلى العالم، ولعبة الإعلام، لعبة خطيرة من يكسبها يكسب نصف المعركة ويحلب تعاطف الرأي العام العالمي لقضيته. فكان على الجزائريين كسب هذه المعركة رغم عدم تكافؤ القوى في هذا الميدان. وتحمل الطلبة الجزائريون في تونس ثقل مهمة كسب الرأي العام التونسي لجانب الثورة الجزائرية الناشئة.

وأول مهمة في هذا المجال هو توضيح أن الأمر في الجزائر يتعلق بثورة حقيقية تحريرية وليس مجرد فلاة أو قطاع الطرق كما يصور ذلك الإعلام الفرنسي مثلا في وكالة الأنباء الفرنسية لتتأثر به جريدة وطنية تونسية بحجم العمل "l'action" والناطقة بالفرنسية وتنعت أحرار الجزائر الوطنيين الثائرين بالعصاة "Rebelles". وهذا تزوير فاضح للحقائق لأنه في هذه الحالة "... يجوز لنا أن نسمي [حتى] الزعماء بورقيبة وبن يوسف ومحبي الدين القليلي مجرمين [لمجرد أنهم] ثاروا على الظلم والبؤس والفقر. ولم يرضوا بالحالة المؤلمة التي يجيها الشعب [التونسي]..."¹

¹ العربي التونسي، أم وطنيون، الأسبوع، 04 جويلية 1955، ص 06.

فتح هذا الأمر الأعين على وجوب شرح أسباب الثورة للأخوة في تونس، حتى لا يتأثروا بالدعاية الفرنسية، فيكونوا خلاصا للثورة الجزائرية.

إن الدافع الأساسي للثورة هو الظلم وهو... السبب الرئيس في ثورة الأمم على الاستعمار، وإذا اشتد الاضطهاد على أمة فبشر باستقلالها¹. ذلك ما كان يتبأ به الإمام عبد الحميد ابن باديس على صفحات مجلة الشهاب². والشعب الجزائري كان يضحج - كما رأينا سابقا - من الظلم الاستعماري الذي يجعل رجلا معتدلا مثلا فرحات عباس يقول سنة 1953: 'لا يوجد حل آخر غير الرشاشات'³.

لقد أشارت كل الكتابات إلى أهمية عامل الظلم في انشباب الثورة التحريرية. فالاستعمار قد... داس كرامتنا، ولوث شرفنا المجيد بعد أن افتك منا أرضنا الخصبة وأرزاقنا الكثيرة المتعددة ظلما وعدوانا وأخرجنا من بيوتنا تخبرا وعتيا، وجعلنا عبيدا مهانا [كذا] في الوقت الذي انتهى دور العبيد [...]. أصبحنا في بلاد أجدادنا أذلاء بعدما كنا أعزاء، ألم يفتك منا مساجدنا العتيقة ويقلبها [...]. كنائسا وبيعا، وحتى بيوتا للفسق والفساد [...]. مثل بأحرارنا الأبطال وزعمائنا الأبرار، وملا منهم السجون والمحتشدات لا لشيء فعلوه، ولا لجرمة ارتكبوها سوى أنهم يريدون لنا الحياة السعيدة، حياة الشرف والكرامة...⁴ ومن ذلك تيقن الجميع أن «... لا حياة لهم ترجى إلا

¹ اعشروت، قوة الشعب أقوى من أن تقهر، الصباح، 02 ديسمبر 1956، ص 04.

² المصدر نفسه.

³ Charles - Robert AGERON, Histoire de l'Algérie contemporaine 1871 - 1954, T2, p 617.

⁴ محمد الشريف المقرابي، لماذا ثارت الجزائر؟، الصباح، 15 ديسمبر 1956، ص 03.

من هذا السيل، سيبل رفع السلاح، والصعود إلى الجبل حيث الأمن والحرية التي اشتد عطشهم اليها [...] وحيث يجدون الراحة التي ما بعدها راحة، راحة الضمير وراحة النفس اطمئناناً¹.

وكان الظلم موجهاً ضد جنس بأكمله الشخص يسحق لكونه جزائرياً دون اعتبار آخر² لقائدة اقلية أوروبية متسلطة. فالشرطي الذي يجلد أو يعذب أوروبي، صاحب العمل أو القيم أوروبي، الضابط أوروبي، الأستاذ أوروبي، الاحتقار أوروبي، والفاقة عربية...³ أي أن المنعم للأوروبي والمغرم على الجزائري ... في جزائر فرنسية غنية وقوية، حيث الاحتكارات والأقلية المالية هي التي تصنع القانون...⁴ فكان لا بد من الانفجار خاصة حين المقارنة بين المستوى المعيشي الذي تعيشه الجالية الأوروبية ونظيره الذي يعيشه الجزائريون أناس في أعلى القمة وأناس آخرون في القاع⁵. هذه الجالية لن تسلم في امتيازاتها وتفعل أي شيء للمحافظة عليها حتى ولو خربت الجزائر وفرنسا على السواء⁶ فهي كالسرطان لا تعيش إلا بالوضعيات الشاذة، راحتها من شقاء الشعب الجزائري⁷. فلا حل هذا الأمر إلا الثورة وحمل السلاح ضدها.

¹ المصدر نفسه.

² J. F. LYOTARD, la guerre des algériens : écrits 1956 - 1963, Ed. Galilée, Paris, 1989, p 45.

³ Ibid, p 46.

⁴ Ferhat ABBAS, autopsie d'une guerre, p 63.

⁵ محمد الشريف المقرائي، كم أنت نائر ياسعيد، الصباح، 30 ديسمبر 1956، ص 03

⁶ العابد بوقيرة، حرب جائرة من أجل كمشة نذلة، الزهرة، 12 جويلية 1956، ص 02

⁷ أحمد معجودة الجزائري، ألتائر الجهول، الصباح، 17 نوفمبر 1956، ص 03

انه وضع متعفن ينير سخط وغضب حتى الاطقال على فرنسا
 ويدفعهم الى الثورة التي يفهمونها، بالتمرد على المؤسسة الفرنسية¹ - إن
 كانوا من المحظوظين ودخلوها كما أضربنا إلى ذلك سابقا - وربما اتهموا
 الأجداد بأنهم لم يقاوموا الاحتلال في بدايته، وبأنهم... استكانوا إلى الراحة
 وتركوا البلاد تنأينا تحت هذا الطاغى الذي لا يعرف لا رحمة ولا
 شفقة²...³ رغم ما فيه من تجريح للأجداد إلا أن هذا الكلام دليل على
 مبلغ الوعي الذي بلغه الشعب الجزائري خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية
 لقد اكتسح هذا الوعي العالم³ متعززا باستقلال كل من الهند،
 الباكستان، اندونيسيا، سوريا ولبنان، أخيرا لم يعد الاستعمار قضاة وقذرا
 ويحق للشعب الجزائري أن يطالب بوجوده... كأمة قائمة الذات والمميزات
 لها جميع حقوق الأمم وعليها واجباتها ضمن الأسرة الأمية الكبرى العاملة
 لغير الإنسانية والسلام العالمي...⁴ إلا أن ذلك يعتمد أولا وقبل كل شيء
 على لغة السلاح، خاصة وأن الجزائر ثلاث عملات فرنسية وجزء لا يتجزأ
 من فرنسا بل الجزائر هي فرنسا في نظر كل فرنسي. لكن دون الجزائريين
 المسلمين. فكانت الجزائر في حاجة إلى التحرك خاصة وقد تحرك جيرانها في
 الشرق والغرب، خصوصا تونس نظرا لسبقها في الثورة فزاد سخط الشعب

¹ عاصي، بريك، بالتمصر - لا بالمفكرة الصباح، 05 جويلية 1956، ص 03.

² محمد القروبي، كم أنت نازك يا سعيد 2.

³ عاصي (تجربا) - محمد الحاج الناصر، كالمعتاد حينها، رجل مع رجل، ولظلم بشكل أوضح،
 الصباح 12 جويلية 1956، ص 01.

⁴ بوز، بعلج، بعد التراجع قضية الجزائر في الأمم المتحدة، الزهور 04 نوفمبر 1955، ص 01.

الجزائري وتعلمه¹ وهو يشاهد ويسمع عن نجاحات الثورة وأهمها تسجيل القضية التونسية في جدول أعمال الأمم المتحدة. الشيء الذي جعل اندلاع ثورة الجزائر مجرد قضية وقت، وجاء الوقت المناسب في الفاتح نوفمبر من العام 1954 لتعم الثورة كامل المغرب العربي إلى أن يقع ما اعتبره البعض من طعنة أخوة في الظهر وذلك بتوقيف القتال وإبرام اتفاقيات الحكم الذاتي التونسية الفرنسية.

2. الموقف الجزائري من الاستقلال الداخلي لتونس

كان تصريح قرطاج ليوم 31 جويلية 1954 - والذي اعترف فيه رئيس الحكومة الفرنسية منداس فرانس بالاستقلال الداخلي لتونس² - نقطة البداية في طريق أدى إلى استقلال تونس الناجز في 20 مارس 1956، بعد تجربة قصيرة من الحكم الذاتي ابتداء من 03 جوان 1955، الشيء الذي أدى إلى توقف المقاومة المسلحة التونسية نهائيا بتسليم أسلحة المقاومين في شهر ديسمبر 1954 أي في الوقت الذي انطلقت فيه الثورة الجزائرية في شهر نوفمبر 1954. هذا الأمر لم يرض الجزائريين خاصة وأنهم في بداية الطريق وفي حاجة ماسة إلى المساندة، مما جعلهم يرفعون عقيرتهم لاستنكار استسلام المقاومة التونسية، معتبرين ذلك «عار على تونس» ونقطة سوداء تسجل في تاريخ تونس الحافل بالبطولة الحق والمواقف الرهيبة والكفاح المرير والجهاد

¹ الحبيب بن ناسي، الثورة الجزائرية وكيف نشأت؟، الأسبوع، 23 جانفي 1956، ص 03.

² Voir le texte intégral in Mohamed SAYAH, le Néo-Destour face à la troisième épreuve 1952 - 1956 - la victoire, col « Histoire du mouvement national tunisien. Documents XIV », Ed. Dar El Amal, Tunis, 1979, pp 325-331.

المقدس...¹، أما تجربة التفاوض، فتجربة خاطئة²، تنكرها الأمة الجزائرية وتصفها بكل سوء³، نتج عنها استقلال خال من كل معاني الاستقلال⁴.

لقد تحمل الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي وزر هذه التجربة فوجهت له الاتهامات اقلها أنه ارتكب جناية على الحركة الثورية بالجزائر عندما ارغم الثوار التونسيين على الاستسلام⁵. والملاحظ أن هذه ليست المرة الأولى التي يتعرض فيها الديوان السياسي. للانتقاد من طرف الجزائريين بل ذلك يعود إلى أيام مشاركته في حكومة شنيق التفاوضية خصوصا عند موافقته على إصلاحات 08 فيفري 1951 فكانه... ضرب القضية المغربية [المغربية] عامة من خلف وفي وقت عصيب...⁶. إن أنصار الديوان السياسي في نظر البعض من الجزائريين - أناس انتفاعيون وأصحاب مصالح شخصية لا يهمهم من الأمر كله إلا ملء جيوبهم وتوسيع هناشرهم⁷ أي أناس دون مبادئ يدافعون عنها، ووصل الأمر إلى حد مهاجمة الحبيب بورقيبة - باعتباره رئيس الحزب ومهندس المفاوضات والاتفاقيات مع فرنسا - بواسطة منشورات اذيعت في الجزائر العاصمة⁸.

¹ العربي التونسي، عار عليك يا تونس، الأسبوع، 26 ديسمبر 1955، ص 10.

² فضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، ص 51.

³ توفيق المدني (تصريح للعلم المغربية)، الزهرة، 02 ديسمبر 1955، ص 02.

⁴ ع. م، لقد جاء صالح وألقى عصاه. الأسبوع، 21 نوفمبر 1955، ص 02.

⁵ الحبيب بن ناسي، المصدر السابق.

⁶ عبد الرحمان بالعقون، الإصلاحات المهينة، الأسبوع، 12 فيفري 1951، ص 04.

⁷ ع. م، المصدر السابق.

⁸ محمد لبجاوي، حقائق عن الثورة الجزائرية، دار الفكر الحر، 1971، ص 124.

لهذا السبب اتخذ الجزائريون جانب الصالح بن يوسف في معركته ضد بورقيبة¹، خاصة وأنه كان ينادي بسقوط اتفاقيات الاستقلال الداخلي، وبوجوب مواصلة الكفاح المسلح إلى غاية الاستقلال التام للبلدان الثلاث - تونس، الجزائر والمغرب - عن فرنسا دفعة واحدة. وقد جرّ عليهم هذا الموقف مضايقات وملاحقات من طرف الشرطة التونسية عقب انتصار جناح بورقيبة².

لعلّ هذا الموقف الذي اتخذه الجزائريون كان بتأثير من تلك المنشورات - السابقة الذكر - وكذا البلاغات التي كان يصدرها الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني لتأييد الصالح بن يوسف ضد الحبيب بورقيبة³.

لقد خمدت الانتقادات بعد تحقق الاستقلال التام لتونس، وتحكّم الحبيب بورقيبة في الأوضاع وإن ظهرت البعض منها فبطريقة لينة وخافتة⁴. ويحق لنا أن نتساءل لماذا كلّ هذا لهجوم على الحكم الذاتي التونسي؟

رأى الجزائريون في نهاية المقاومة المسلحة في كلّ من تونس والمغرب، عزلة عسكرية للجزائر⁵ بغلق مسارب التموين بالسلاح خاصة إذا اتفقت

¹ ع. م.، المصدر السابق.

² مراسلة الشاعر محمد الأخضر عبد القادر الساتحي.

³ مثلاً الصباح، 14 أكتوبر، 03 نوفمبر 1955.

⁴ يحيى بو عزيز، الصباح في معارك التحرير: وضوت الجزائر الحرة، الصباح، 27 أكتوبر 1956، ص 03.

⁵ Une lettre de BEN BELLA à KRIM, BENTOBAL et BOUSSOUF daté du 26 avril 1958 in Mohamed HARBI, les archives de la révolution algérienne, Ed. jeune Afrique, Paris, 1981, p 187.

فرنسا مع اسبانيا التي تحتل شمال المغرب. وهذا يعني اختناق الثورة الجزائرية وموتها وهي في المهد، خاصة وأن كل الأجهزة الأمنية والعسكرية بقيت في يد فرنسا ولمدة عشرين سنة مع مراقبة الحدود والمجال الجوي¹. إذن اتفاقيات الحكم الذاتي لم تفعل شيئا إلا أنها حررت قوات إضافية، تحولها فرنسا إلى الجزائر لقمع الثورة، وتتيح لها الفرصة لتستجمع قوتها للضربة الأخيرة، مع توفير ميزة إضافية وهي تقليل المصاريف العسكرية التي كانت تثقل كاهل ميزانية الفرنسية²، وهذا كله يؤدي إلى أن... تزيد قدم الاستعمار رسوخا في الجزائر فيكتب له بذلك الخلود، وتعيش الجزائر المسكينة محتلة احتلالا أبديا سرمديا...³ وذلك هو الخوف الأكبر.

أما بورقيبة فكان يؤمن دوما بأولوية وعلوية الاستراتيجية السياسية على العمل العسكري⁴ ويأنه يستحيل تكوين قيادة عامة تسير من القاهرة الثورات في البلدان الثلاث التي هي في مراحل مختلفة من التطور والنضج ولأن الحركة الوطنية التونسية هي الأنضج والأشد تطورا والأكثر تنظيما وهي التي بدأت النضال الأولى فمن حقها أن تعقد اتفاقا الأولى مع فرنسا⁵ لاسترجاع جزء من الاستقلال كمرحلة أولى والاستقلال الناجز كمرحلة

¹ Charles-André JULIEN, Et la Tunisie devint indépendante (1951-1957), Ed. Jeune Afrique, Paris, 1985, p 194.

² Fathi AL DIB, Abdel Nasser et la révolution algérienne, Ed. l'Harmattan, Paris, 1985, pp 123-124..

³ حمادي بنغريش، نهاية تحشاها فرنسا...، الصباح، 07 أوت 1956، ص 02.

⁴ Jean ROUS, Bourguiba : L'homme d'action de l'Afrique, Ed. John Didier, Paris 1969, p 167.

⁵ Ibidem, pp 166 - 167.

ثانية في أقصر مدة لا تتجاوز الستة أشهر، نظرا للطرفية المغربية الملائمة -
بحسب افادة عماد ليجاوي -¹.

هذا الجدل المقيم أدى إلى اتفاق ضمني بين الطرفين. فقد فهم الجزائريون أنه "... ليس ثمة حكومة مغربية أو تونسية تقبل بأن ترى بلادها في حالة حرب فيما هي تنال الاستقلال ولو مقرونا ببعض التحفظات"². هذا الوعي دفعهم إلى كسب ود القادة التونسيين والمغاربية، وتحويل هذين البلدين المجاورين إلى قاعدتين اساسيتين لنشاط الثورة السياسي والدبلوماسي والعسكري³، من جهة ثانية فإن زخم الثورة وموقف الصالح بن يوسف دفع الحبيب بورقيبة إلى التصلب في سياسته نحو فرنسا⁴ وبالتالي تحقيق الاستقلال التام لتونس والتي قدمت ما عليها وزيادة على درب استقلال الجزائر، أقلها وجود جالية جزائرية تعيش في هذه الأرض منذ عقود، لا بد من التكفل بها والتعامل معها في هذه الظروف العصيبة، والتي قدرت المعروف - من جانبها - وتفهمت الوضع الجديد، وتحملت مسؤولياتها.

3. الجالية الجزائرية بتونس بعيد اندلاع الثورة

تواجد الجزائريين في تونس كجالية منذ فجر الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث كانوا دائما يجدون المأوى والمأمن بعد الهجرة الاختيارية. فلا

¹ عماد ليجاوي، المرجع السابق، ص 115.

² المرجع نفسه.

³ المرجع نفسه.

⁴ Samya EL MACHAT, les États-Unis et la Tunisie : de l'ambiguïté à l'entente : 1945-1959, éd. L'harmattan, col. « Histoire et perspectives méditerranéennes », Paris, 1996, p 83.

فحال أن تكون الجالية الجزائرية بتونس - وإن عزتنا الإحصائيات - كثرة العدد. ويبدو - أيضا - أنهم توزعوا على مختلف فروع النشاط الاقتصادي التونسي فإذا أخذنا تركيبة اللجنة المديرة لودادية الجزائريين بالفطر التونسي لعام 1955 كمثال¹ لوجدنا منهم المحامي، الطبيب، الصيدلي، الموظف، الفلاح، التاجر، المقاول، الصناعي وحتى صاحب فندق، مما يعني أنه كان لهم حضورهم إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية بالجزائر.

لقد تحمّل جزائريو تونس مسؤولياتهم بتأييد طموح شعبهم للتحرر والانعتاق، وذلك بالتنديد بما يتعرض له من قمع وقهر وتدمير، لدى السلطات الاستعمارية في باريس². ولما لم يشفع هذا الاحتجاج، تأكد لهم أن لا حلّ أمام الجزائر إلا استعمال القوة لاسترجاع حقوقها المهضومة منذ ما يزيد عن القرن وربع القرن فاندفعوا في تأييد جيش وجبهة التحرير الوطنيين... بلا قيد ولا شرط حتى النصر النهائي³. لا شك أن الاستقلال التام لتونس والذي أيده جزائريو تونس⁴ ثم تأييد تولي الرئيس الجليل الأستاذ الحبيب بورقيبة رئاسة أول حكومة تونسية مستقلة⁵، قد وُلد في نفوسهم تأكيد الذاتية الجزائرية.

¹ الزهرة، 14 أفريل 1955، ص 02.

² بوقية من الجزائريين بتونس إلى رئيس الحكومة الفرنسية، الزهرة، 04 أوت 1955، ص 01.

³ بوقية من الجزائريين المقيمين بتونس إلى القسم الجزائري بمكتب المغرب العربي بالقاهرة، الصباح جويلية 1956، ص 02.

⁴ أحمد بالويس، بوقية تهتة إلى رئيس الحكومة التونسية، الصباح، 23 مارس 1956، ص 04.

⁵ محمد بالطيب، مقابلة مع الحبيب بورقيبة، الصباح، 05 ماي 1956، ص 02.

كان الجزائريون يعتبرون فرنسيين مسلمين حسب القانون الفرنسي وتواصل الأمر في تونس حتى بعد استقلالها. واندلاع الثورة التحريرية التي أعادت النظر في كل الأسس التي قام عليها الوجود الفرنسي بالجزائر. فكان لابد من أن يتحرك جزائريو تونس لإعادة الأمور إلى نصابها بأن أكدوا بأنهم ليسوا فرنسيين مسلمين لأنه لقب كرية¹ بالنسبة لهم. وتوجهوا إلى الشعب التونسي طالبين منه اعتبارهم جالية عربية مسلمة لا فرنسية لأن... الشعب الجزائري الثائر لم يثر ثروته الجائعة هذه إلا دفاعا عن كرامته وعزته وعرويته وإسلامه ومحق هذه الأسطورة الخرافية التي يتشرف بها الفرنسيون والانسلاخ من هذه الجنسية التي الحقت بنا قرنا وربعا ونحن منها براء يشهد بذلك إسلامنا وعروبتنا وما قاساه الشعب الجزائري من اهانة وذل وعذاب [...] فإن كان الشعب الجزائري كبيره وصغيره، شيوخه وشبانته، نساؤه ورجاله يذهبون ضحية العدوان في سبيل هذا الأمر الجليل ثم نأتي هنا ونرضى بهذه الجنسية المفقوتة ونرضى أن نبقى نعامل كالفرنسيين فما نحن إلا خونة مارقون حقت علينا غضبة الشعب، وبل للمرء من غضبة الشعب الجريح المكافح [...] أنا عرب مسلمون فعاملنا معاملة العرب المسلمين [...] نريد [أيها الشعب التونسي] أن تعتبرنا جزائريين مسلمين عرب، نحن من الجزائر وإلى الجزائر العربية نتسب في سبيل الجزائر نحيا ونموت².

وكان الجزائريون على حق حين مطالبة السلطات التونسية إسقاط اعتبارهم فرنسيي الجنسية. فهذا هي فرنسا تحاول نقل المساجين السياسيين

¹ نداء من جزائريي تونس، الزهرة، 20 ماي 1956، ص 02.

² المصدر نفسه.

الجزائريين - بعد استقلال تونس - من السجون التونسية إلى السجون الفرنسية بعد حملات الانتقالات التي تعرضوا لها منذ اندلاع الثورة¹، لذا فقد رفع هؤلاء المساجين اصوات الاستغاثة بالسلطات التونسية... لكن تقف دون رغبة السلط الفرنسية...² لأن الأمر يثير فيهم... مخاوف للتشفي والانتقام...³ والأمر الذي يثير الاستغراب وجود مساجين لدولة أخرى في أرض دولة مستقلة، ويبدو أن الحكومة التونسية تقادت الإشكال برفضها السلاح بنقل المساجين خارج تونس، مما ساهم في إنقاذ رؤوس كانت ستطرح بها الهمجية الفرنسية.

هذا العمل والموقف الشجاع من الحكومة التونسية قابله موقف لا يقل شهامة وشجاعة، إلا وهو الموقف المتضامن للشعب التونسي مع أخيه الشعب الجزائري في محنته.

الشيء الذي جعل الجزائريين يتوهون به على صفحات الجرائد وهم يرون الشعب التونسي يساعد إخوانه اللاجئيين الجزائريين في محنتهم⁴، وحتى المساجين كان لهم نصيب من هذه المساعدة⁵، حتى ليشعرون أنهم...

¹ الزهرة، 09 أوت 1955، ص 01، أيضا الصباح، نفس التاريخ.

² المساجين الجزائريين يطلبون من الحكومة التونسية التدخل في قضيتهم، الصباح، 05 أوت 1956، ص 01.

³ المصدر نفسه.

⁴ محمد الأخضر السانحي، الإعانة الخالدة، الصباح، 27 جويلية 1956، ص 02.

⁵ محمد الشنبري، الرزقي بسطة، سجينان جزائريان يوجهان شكراتهما إلى إخوانهم المساجين التونسيين، الصباح، 17 أوت 1955، ص 02.

حقا في وطنهم الثاني بين إخوان كرام يقاسمونهم الأهم...¹ إن أحسن
تعبير بصور التعاون والحوار بين تونس والجزائر هو أن التونسي في الجزائر
جزائري، والجزائري في تونس تونسي...²

وإن هذا الوعي - الذي أظهرته الجالية الجزائرية بتونس - بالانتماء
لوطن اسمه الجزائر، ومن خلاله التضامن مع باقي طبقات الشعب الجزائري
من أجل التحرر والاستقلال من الهيمنة الاستعمارية، قد كاد ينقذ عقله
داخل الجزائر ليتحول الصراع إلى قلب المجتمع الجزائري عن طريق افتعال
الثغرات والصراعات داخله، خصوصا أن يكون الصراع بسبب اضطهاد
أغلبية لأقلية، الأمر الذي يفجر وحدة المجتمع من الداخل وتفشل جهوده
لتحقيق أهدافه التي ثار من أجلها.

4. قضية الاعتداء على تجار بني ميزاب

أثارت قضية الاعتداء على محلات تجار بني ميزاب، والدعوة إلى
مقاطعتهم اقتصاديا سنة 1955 - من خلال مناشير ظهرت في العاصمة
الجزائرية - معارك على صفحات الجرائد التونسية.

يراهما البعض مشكلة وطنيين وغير وطنيين لأن... بني ميزاب مثل
غيرهم من الجزائريين الآخرين في كل شيء دون استثناء، بحيث يوجد من
بينهم الوطنيون المتحمسون لقضية بلادهم الوطنية، كما يوجد من بينهم

¹ بيان من جمعية الطلبة الجزائريين، الصباح، 09 أوت 1956، ص 02.

² محمد الأخضر الساتحي، المصدر السابق.

أيضا من يشدّ عن سير الأمة في اندفاعها التحريري النبيل...¹ أما آخرون فيرون أنها مشكلة طائفة بأكملها، وغير موجهة إلى أفراد طوال خمسة أشهر كاملة (العملية بدأت في ماي 1955) وبالنظر لأولقاطعة للميزابيين سنة 1936 والمسؤولين عن هذه المقاطعة² فتكرّر مقاطعة التجار الميزابيين³ أعطى هذا الانطباع بأنه اضطهاد لأقلية، وذهب آخرون إلى اتهام المصاليين [MNA] بتدبير هذه العمليات بحجة أن الميزابيين لم يتضامنوا مع إخوانهم الجزائريين⁴ بينما وضع غيرهم إصبعهم على الاستعمار والشركات الأجنبية وهم أكبر المستفيدين من هذه الفتنة وبراوا الثوار من هذا الفعل الدنيء مشيرين إلى مناشير جبهة التحرير المتبرئة من هذه الاعتداءات⁵ ومبرّين الميزابيين من أي فعل يخل بشرفهم الوطني أو بانتمائهم العربي الاسلامي⁶.

تعرّض العلماء - خاصة أعضاء المكتب التنفيذي لجمعية العلماء - لموجة من الانتقاد القاسي لتقاعسهم عن مواجهة هذه الفتنة التي تهدد وحدة الأمة الجزائرية ووجّه اليهم التساؤل ... ألا تشعررون بأنكم المسؤولون

¹ جزائري، حقيقة مشكلة بني ميزاب، الصباح، 29 أكتوبر 1955، ص 01.

² مفدي زكريا، الحاج الناصر محمد، حقيقة مشكلة بني ميزاب، الأسبوع، 21 نوفمبر 1955، ص 02.

³ نور الدين بن محمود، قابلت الزعيم أحمد مصالي الحاج، الأسبوع، 18 جويلية 1948، ص 03.

⁴ Mohamed HARBI, Le F.L.N., Mirage et réalité : Des origines à la prise du pouvoir (1945-1962), Ed. Jeune Afrique « col. le sens de l'histoire », Paris, 1980, p 146.

⁵ ابن عمر، حول مشكلة بني ميزاب إلى الجزائري المطلع، الأسبوع، 09 ديسمبر 1955، ص 03.

أنظر أيضا، د. العربي الزيري، المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد بالجزائر، 1991، ص 142.

⁶ خير الدين ابن العياشي، تصحيح لآباء القطر الجزائري، الصباح، 24 ديسمبر 1955، ص 01.

الأول [كذا] عن جهاز الأمة يراد [له] أن يتهاوى، وعن وحدة الأمة يراد لها أن تتفتت إلى جماعات، وعن مبدأ اجرامي أثيم، مبدأ توزيع الأمة إلى أقليات يراد له أن يشتد ويستقيم على سوقه ليجبه مصير الأمة وهي تسعى إليه ويسعى إليها عن طريق من المهج والجثث... وذكر أصحاب الانتقاد أن فضيلة الشيخ الأجل الأبراهيمي حينما علم بالقضية كتب من القاهرة إلى المكتب التنفيذي وإلى جريدة البصائر منددا بهذا الأمر الشنيع، لكن كتابته لم ترى النور على صفحات البصائر. وهذا أمر يثير الريبة في أعضاء المكتب التنفيذي.

تعلى بعض العلماء بالخوف من الاغتيال، وتوصلهم بتهديدات في هذا الأمر لكن "... أيهما إذن أكثر تناسقا وتجاوبا مع تعاليم الاسلام ومثل العروبة. العمل على صيانة الوحدة - أم السكوت عن المحنة العابثة بها، وهل يمكن أن يجتمع الخوف من الأشباح الموهومة، وقوة الإيمان التي يقتضيها الاسلام في قلب رجال الدين؟¹

فإن خاف وجبن رجل الدين فلا يمكن لنا أن نلوم رجل الشارع العادي أن وقع في نفس المحذور، خاصة أمام حجم القمع الشديد الذي سلطه الجيش الفرنسي على الشعب الجزائري الذي وإن قبل استقلال المستعمرات الفرنسية على مضض فإنه استبعد أي فكرة لاستقلال الجزائر² فكان الإرهاب محاولة منه لوقف عجلة التاريخ.

¹ مفدي زكيا، محمد الحاج الناصر، كتاب مفتوح إلى أعضاء المكتب التنفيذي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الصباح، 24 أكتوبر 1955، ص 01.

² Raoul SALAN, Mémoires fin d'un empire : Algérie française 1^{er} novembre 1954 - 06 juin 1958, Presse de la cité, Paris, 1972, p 19.

الفصل الثاني : تطور الثورة

1. القمع الاستعماري

رافق تنامي الثورة الجزائرية ردات فعل استعمارية، القصد منها القضاء التام على هذه الثورة لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه قبل 01 نوفمبر 1954، وكانت كل الوسائل مشروعة - في نظر الدوائر الفرنسية - لتحقيق هذا الهدف، وعلى رأسها القمع.

رسمت لنا كتابات الجزائريين صورة فظيعة ومرعبة للممارسات الفرنسية في حق الشعب الجزائري الأعزل بالدرجة الأولى. بعد كل فشل أمام جيش التحرير الوطني فيستأسد، الجند [الفرنسي] ويظهرون رجولتهم مع الأهالي الأبرياء...¹ لا يخلو أي مقال ولو من إشارة إلى ذلك، لأن في هذه الممارسات... وحشية لا تضاهيها وحشية المغول والتتار ولا أي وحشية أخرى من تاريخ الإنسانية...²

كانت هذه لكتابات صرخة في الضمير العالمي والتونسي خصوصا، أن سارعوا إلى إنقاذ الشعب الجزائري من أيدي جلاديه التي لا ترحم، أن ساعدوه على التخلص من قيوده.

¹هادي بغريش، من وحي بيان جمعية العلماء الجزائريين، الصباح، 13 ماي 1956، ص 02.
²هادي، نهاية لاكوست، الصباح، 01 نوفمبر 1956، ص 03.

الثابت أن كتاب هذه المقالات - في الغالب الأعم - لم يكونوا شهود عيان على ما وقع لكن يكتبون اعتمادا على روايات اللاجئين، والقادمين من ارض المعركة من المجاهدين، خاصة وأن تونس قد تحولت إلى قاعدة خلفية للثورة، عقب استقلالها : فتحول هؤلاء إلى مصدر أساسي للاطلاع على ما يجري في الجزائر من مخازي¹.

بدأ القمع بمجرد اندلاع الثورة، ففي 19 ماي 1955، أمر الحاكم العام للجزائر، جاك سوستيل Jacques Soustelle بالإعدام الفوري للمتמרدين الذين يؤسرون السلاح في أيديهم² وأمر أيضا بتطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية على السكان المتأمرين معهم وقد طبق هذان الأمران عند تمشيط جبال الشمال القسنطيني³.

لم يعد الجيش ومصالح الأمنالفرنسيان - إذن - يفرقان بين الثوار المدنيين فالكل مشبوه والكل متهم، والكل يستحق العقاب لمجرد أنه جزائري، إلا أنه هناك بعض الاختلاف بين القمع في الأرياف والجبال من جهة والقمع في المدن من جهة ثانية. وإن كان الجوهر واحد.

في الأرياف، شهدت الجزائر ما يعرف بالمناطق المحرمة التي يمنع الإقامة بها ويباح فيها لجيش الفرنسي اطلاق النار على أي شيء يتحرك دون سابق

¹ أنظر فيما يأتي من مقالات يحيى بوعزيز فيها إشارات إلى بعض مصادر معلوماته، لكن دون الأسماء.

² Yves COURRIERE, Les temps des léopards, Ed. Fayard, Paris, 1963, pp 113.

³ Guy PERVILLE, « Le tourisme dans la guerre d'Algérie (1954-1962) » in Charles-Robert AGERON (prés.), L'Algérie des français, Ed. Seuil, Paris, 1993, p 209.

إنذار، مما جبر سكانها على الجلاء عنها واللجوء إلى المغارات والكهوف¹ قبل أن يساق من بقي منهم إلى مراكز الاحتشاد ذات الاسما الجميل في المصطلح الفرنسي مراكز إيواء والتي كانت جهنم في الأرض بالنسبة للجزائريين² ابتداء من صيف 1957³ في محاولة لفصل الثورة عن وسطها الطبيعي - الشعب.

تضاعف القمع مع مقدم الوزير المقيم بالجزائر روبر لاكوست Robert Lacoste بسياسته المعروفة بالتهدئة، المعتمدة على الإرهاب والأرض المحروقة في محاولة أخيرة، لإيقاف عجلة التاريخ عن الدوران - خاصة وأن سلفه جاك سوستيل Jacques Soustelle اعترف بفشل مناوراته السياسية لإفشال الثورة بأيدي الجزائريين، ولم يبق إلا الحرب ويجب خوضها⁴ فاضحى معها تفجير الناس أو احراقهم أحياء، أو دق المسامير في أجسادهم، أو بقر الحوامل واغتصاب النساء والتمثيل بهن، أو قتل الأطفال والشيوخ أو تسليط الكلاب المدربة على الفتك بالمدنيين أو إيقافهم ثم اغتيالهم⁵ من الأساليب الدارجة والروتينية في تطبيق هذه

¹ يحيى بو عزيز، ساحات الوعي ثدثني، الصباح، 11 اوت، 1956، ص 03.

² Voir Hafid KERAMANE, La pacification : Livre noir de six années de guerre en Algérie, Ed. La cité Editeur, Lausanne, 1960.

³ Henri ALLEG (s. dir.), La guerre d'Algérie, T2, Ed. Temps actuel, Paris, 1981, p 137.

⁴ Charles-Robert AGERON « l'insurrection du 20 août 1955 en Algérie de la résistance ... à la guerre du peuple » in actes du VIIe colloque international sur la résistance armée en Tunisie aux XIXe et XXe siècles, tenu les 18, 19 et 20 novembre 1993, Publications de l'institut Supérieur d'Histoire du Mouvement National, Tunis, 1995, p 222.

⁵ مراسل خاص حول الضجة الكبرى ضد فظائع الفرنسيين بالجزائر، الصباح، 11 ماي 1957، ص 03

السياسة. أما سرقة أرزاق الناس أو تدميرها فذاك امر متجاوز لكثرة تكرره، وهو اخف الأضرار الناتجة عن تمشيط القرى والمداشر¹، أما إذا كان التمشيط بعد عملية لجيش التحرير، فإن التجمع السكاني الذي وقعت قربه العملية، يدفع الثمن غالبا استنادا إلى مبدأ المسؤولية الجماعية - كما ذكرنا سابقا - فقد محيت قرى بكاملها من الخريطة بالقصف الجوي والمدفعي² بسبب ذلك، ولما لم تنفع هذه الفظاعات في اطفاء نار الثورة، عمدت السلطات الاستعمارية إلى خرق القوانين الدولية التي تحرم استعمال الغازات السامة في الحروب والنزاعات المسلحة والتي أوقعت - عند استعمالها - الكثير من الضحايا في صفوف الثوار والمدنيين - على السواء³.

أما في المدن فكان الحصار الاقتصادي⁴ فعلا ومتكررا لمعاوية الأحياء التي تكون مسرحا لنشاط فدائيي جيش التحرير، بإعدام النشاط التجاري بها على أمل كسب تعاون المتضررين من الحصار مع السلطة الاستعمارية، باعتبار فدائيي جيش التحرير هم المتسببون في الحصار وقطع أرزاق الناس.

ومن ناحية أخرى عمدت نفس هذه السلطات إلى إباحة الأحياء العربية للأقلية الأوروبية لتعيث فيها فسادا وقتلا بعد سقوط أي ضحية في صفوفها،

¹ حمادي، نهاية لاكوست، الصباح، 01 نوفمبر 1956، ص 03.

² يحيى بوعزيز، مأساة بني معمر مثل حرب الإبادة...، الصباح، 15 سبتمبر 1956، ص 03.

³ يحيى، تحقيق خطير حول استعمال الغاز الممختق، الصباح، 08 ديسمبر 1956، ص 03.

⁴ مراسل خاص، فظائع الفرنسيين بالجزائر مستمرة، الصباح، 18 ماي 1957، ص 03.

وكانت النخبة - في الغالب - هي المستهدفة من عمليات الانتقام¹. ولم تكن السلطات الاستعمارية بغض الطرف عن إرهاب الأقلية الأوروبية بل وشاركتها - بطريقة مستترة - سواء بالتسليح أو التحريض². ولأن التركيز الإعلامي كبير في المدن، وبالتالي يصعب إخفاء جرائم القتل العلنية كما في الأرياف، فإن السلطات ابتكرت أسلوبا لتصفية المشتبه بهم، دون أن تثير عليها الرأي العام العالمي بأن تعتمد إلى اعتقال المشتبه بهم، ثم إعدامهم والادعاء بأنهم حاولوا الفرار أثناء نقلهم من مكان إلى آخر، أو أنهم حاولوا افتكاك سلاح الحرم أو أنهم ببساطة انتحروا³ بعدما يكونوا قد مروا على عملية تعذيب وحشية، قصد الحصول على أي معلومات حول المقاومة، سيرا على هدي شعار الجنرال ماسو le général Massu بقدر ما تعذب، بقدر ما نحصل على معلومات⁴. لقد تحول التعذيب إلى روتين يومي فيما يسمى بمراكز الفرز⁵ والقليل ممن خرج من هذه المراكز دون تشويه في جسده كذكرى منها ويكون سعيد الحظ إذا خرج منها حيا.

اتهم الجزائريون فرنسا بالنازية⁶ في سعيها الخبيث لتركيع الشعب الجزائري باتباع الأسلوب الهتلري في القمع، ذاك الأسلوب الذي كانت تندد به يوم كانت محتلة من طرف ألمانيا أما في الجزائر فتطبقه بصفة دقيقة بل بزت

¹ عبد الرحمان شيبان، فقيده الأدب والفن الأستاذ أحمد رضا جوحو، الصباح، 29 مارس 1957، ص 03.

² مراسل خاص، في وضع النهار والشمس مشرقة ج 2، الصباح، 01 جوان 1957، ص 03.

³ بيان من جمعية العلماء، الصباح، 16 أبريل 1957، ص 01.

⁴ Henri ALLEG (s. dir.), La guerre d'Algérie, t2, p 315.

⁵ Henri ALLEG, La question, Ed. Minuit, Paris, 1958, p 70.

⁶ محمد الشريف المقراري، من فظائع الاستعمار الفرنسي - بني عيبدل الشهيد، الصباح، 26 جويلية

الألمان في حسن التطبيق وزادت عليه من ابتكاراتها الإعدام بالمقصلة¹ هدية الثورة الفرنسية إلى العالم.

رغم كل الوسائل القمعية التي استعملتها فرنسا للقضاء على الثورة، إلا أن العكس هو الذي حدث فكلما زاد القمع، زاد الانتساب للثورة² خصوصا وأن القمع لم يستثن حتى من خدموها سنينا طويلة³ مما خلق في النهاية حالة من التلاحم بين الثورة والشعب فاحتضانها وربط مصيره بمصيرها.

2. احتضان الشعب الجزائري للثورة :

كان الشعب الجزائري - مستعدا للثورة - على الأقل من الجانب النفسي - نظرا للوجود الاستعماري، جانما على صدره. فالظلم المسلط عليه كان له اثره في نضوج وعيه القومي⁴ وبوجوب التخلص من هذا العبء الذي يثمن تحته، والحل هو الاستقلال والتحرر، لأن المظلومين كلما ضغط عليهم... ازدادت الحربة في نفوسهم قداسة...⁵ ولذلك حينما يتمرد الفكر ويقول لا للهيمنة، فإن العنف لا يؤدي إلا إلى تنامي التصميم

¹ خليفة محفوظي، من جنون السياسة، الصباح، 25 اوت 1956، ص 03.

² Lanzo DEL VASTO, Pacification en Algérie ou mensonge et violence, Ed. L'Harmattan, Paris, 1987, p 22.

³ مراسل خاص، قطائع الفرنسيين بالجزائر مستمرة، الصباح، 18 ماي 1957، ص 03.

⁴ عثمان شوب، أثر الظلم في خلق الوعي القومي، الصباح، 04 اوت 1956، ص 03.

⁵ فضيل، م.، قطائع الاستعمار في حرب الجزائر، الصباح، 08 سبتمبر 1956، ص 03.

على الرفض¹. في هذه الحالة والشعب مهيا للانفجار، يكون بحاجة فقط إلى الخطوة الأولى، ثم يتكفل بالأمور بنفسه بمجرد ما تتوضح أمامه الطريق، لأنه يستحيل إيقاف حركة شعبية بالقوة² بدأ احتضان الشعب الجزائري للثورة - فعليا - عام 1956³ لأنه... من الخطأ الاعتقاد بأن الشعب رغم كل التعاطف الذي أظهره منذ البداية سيرثي دفعة واحدة ويكل تلقائية في احضان جبهة التحرير فكان لا بد من المناورة، والمرافعة، والتهديد وإظهار له شبنين بسبطين: الأول أن جيش التحرير كان قويا، ومصمما وفي إمكانه الوقوف التذ للتد أمام الجيش الفرنسي، ثانيا، أن الفلاحين لن يعرفوا مع فرنسا إلا ما عرفوه قبلا، الفقر والظلم. دون جيش التحرير لن يكون هناك أي تغيير، فقط وعود تخلف⁴. وبهذه الطريقة تم كسب الشعب إلى صف الثورة في وقت غدت فيه الجزائر... أكبر محتشد عرفه تاريخ الحرب والاضطهاد وأوسع مسرح لمآسي غريبة فجيعة يمثلها الاستعمار بمختلف أجهزته الإجرامية ووسائله الجهنمية، وبكل ما أوتي من حقد ووحشية وياس وجنون...⁵ وكان من نتائجها أن أكدت التحام القاعدة الشعبية والتفافها حول جبهة التحرير...⁶.

¹ Ali HAMMOUTENE, réflexions sur la guerre d'Algérie, Ed. publisud - S.N.E.D., Paris - Alger, 1982, p 47.

² Ibid, p 26.

³ Henri ALLEG, (s. dir.), La guerre d'Algérie, T2, p 09

⁴ Ferhat ABBAS, Autopsie d'une guerre, p 97.

⁵ عبد الرحمن شيبان، الحجاب الأدبي عند الأمير عبد القادر، الصباح 15 مارس 1957، ص 03.

⁶ عبد الله شريط، محمد البلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، فسنطينة، الطبعة الأولى، 1965.

لقد عدت كتابات الجزائريون أشكال هذا الاحتضان الشعبي للثورة الجزائرية، وكان الإضراب، أنصع دليل على التفاف الشعب حول الثورة. فعلا فإن الشعب الجزائري كان حاضرا في المواعيد الكبرى في تاريخ الثورة، بدءا بالإضراب الذي نادى به جبهة التحرير الوطني يوم 05 جويلية 1956، لما لهذا اليوم من مكانة في قلوب شعب الجزائر لتزامنه مع الذكرى 126 لاحتلال الجزائر¹، ولما في ذلك من ألم وجرح للكرامة. لذا كانت المشاركة كبيرة، أرخت لدخول الشعب المرحلة الثورية المسلحة، فإذا كانت المعارك العسكرية تخلق الشروط البيكولوجية للكفاح فإن الإضرابات تجتد الطاقات برفع روح التضامن والاتحاد الوطني²، هذه الروح مستظهر بصفة واضحة مدة إضراب الثمانية أيام، في الفترة الواقعة بين 28 جانفي و 04 فبراير 1957، حيث أظهر الشعب مدى وعيه بقضيته، خاصة وان هيئة الأمم المتحدة مقبلة على درس القضية الجزائرية. فامتثال الشعب لنداء جبهة التحرير للإضراب تعريزا لموقف جبهة التحرير في الأمم المتحدة على درب تحرير البلاد من الاستعمار³ ورغم الإجراءات الوحشية التي قام بها الجنرال ماسو Massu لتعطيم الإضراب والتي دفع التجار بسببها الثمن الأقدح⁴، فإن الإضراب قد نجح، فلم يعد هناك من يقدر في مدى شرعية وشعبية ثورة شعب الجزائر.

¹ يحيى بوعزيز، هل من مزيد يام. لأكوست، الصباح، 12 جويلية 1956، ص 03.

² Ali HAMMOUTENE, op. cit, p 19.

³ يحيى بوعزيز، نقول هذا للتذكير، الصباح، 1 و 2 فبراير 1957، ص 2 و 3.

⁴ حمادي، بطولة صامتة، الصباح، 16 فبراير 1957، ص 03.

وللتأكيد أكثر على تغلغل الثورة في الأوساط الشعبية رأى البعض من هذه الكتابات التدليل على مواقف فردية معبرة كأولئك الشيوخ الذين لم تمنعهم سنهم العالية من المشاركة في الأشغال الهندسية لجيش التحرير الرامية لإعاقة تنقلات جيش الاحتلال¹، وكتلك العجوز التي أقسمت أنها لن تستقبل ولدها - الذي لم تره منذ سنة كاملة - لو لم يأتها مسلحا وجنديا في جيش التحرير². وهذا يدل على أن المرأة الجزائرية لم تتخلف عن أداء الواجب³.

لقد أصبح الشعب الجزائري كله نائرا، بعدما اثرت الثورة في سلوكه وتفكيره⁴.

هذا يعني أن الشعب الجزائري قام بما قام به عن عقيدة، لأنه لم يرض يوما بالاحتلال الفرنسي، فقد حارب تحت راية الأمير عبد القادر مدة 17 سنة حربا ضروسا⁵، وخسر المعركة لأنه ... كان [...] وحده في الميدان خذله الأقارب، وشمته به الأبعاد، وغفل ونام عنه الرأي العام العالمي...⁶، غير أنه لم يسلم سيادة الوطنية ولا مقوماتها للعدو والمحتل⁷ وبقيت تعتمل

¹ أحمد الجزائري، نواظر عن الثورة الجزائرية ومكانتها في الشعب، ج 2، الصباح، 29 مارس 1958، ص 03.

² يحيى بوعزيز، جيش التحرير في الميدان، الصباح، 28 جويلية 1957، ص 03.

³ محمد الصالح الصديق، بطولة المرأة الجزائرية، الصباح، 08 جوان 1957، ص 03.

⁴ أحمد مجحودة الجزائري، ألزحف المقدس، الصباح، 15 ديسمبر 1956، ص 03.

⁵ يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر...، الصباح، 09 مارس 1957، ص 03.

⁶ رشيد منى بتعظ الفرنسيون؟، الصباح، 19 جانتني 1957، ص 03.

⁷ أحمد بوروح، الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية، الصباح، 02 نوفمبر 1958، ص 02.

في وجدته ومن هنا... لم تكن ثورتنا تلقائية أو طفرة زمنية تحركها أصابع أجنبية، أو طائفة من أبناء الشعب دفعا اليأس والحمران إلى أعمال العنف...³

التفاف الشعب الجزائري حول الثورة لا يخفي بأنه كانت هناك طائفة خرجت عن اجماع الشعب، هذه الطائفة الخائنة تكفل بأمرها جيش التحرير لإرجاعها لحظيرة الإجماع الوطني أو للقضاء عليها بكل بساطة² ليواصل هو (الشعب) التعبير عن رغبته في التحرر وعزمه القوي في التخلص من السيطرة الأجنبية والاستعباد، فكانت منه [الثورة] له يؤيدها ويغذيها بكل وسائل النمو والحياة والبقاء من رجال ومال ومخابرات في الجبال والقرى والمدن...³

شعب كهذا... يثور برجاله ونسائه وأطفاله، وخيله ورجله، وذئابه وأنعامه بل وحتى حجارته وترتبه [...] لا يمكن بحال أن يخيب في مطالبه⁴ ولا يمكن أيضا أن يبقى طلبته وهم طبقته المثقفة بمعزل عن المعركة التي يخوضها الشعب معركة البقاء أو الفناء، وكان للطلبة المقيمين بتونس معركتهم.

3. الطلبة الجزائريون بتونس أثناء الثورة :

¹ أحمد بوروح الجزائري، حول أصور من البطولة في الجزائر، الصباح، 31 أوت 1958، ص 03.
² يحيى بو عزيز، أعمال الوحشية في الجزائر، من أجل حماية عائش، الصباح، 06 أكتوبر 1956، ص 03.
³ أحمد الجريدي، خواطر عن الثورة الجزائرية ومكائنها في الشعب ج 1، الصباح، 22 مارس 1958، ص 03.

⁴ يحيى بو عزيز، جيش التحرير في الميدان، الصباح، 28 جويلية 1957، ص 03.

كان الطالب الجزائري بتونس متعطشا للثورة، وقد سنحت له الفرصة ان يقارن بين الأوضاع بالجزائر ونظرتها بتونس، ليخلص أنه لا فائدة من الاستعمار، ولا حل أمام الشعوب إلا الثورة ولذا فلا نظن أن الثورة قد فاجأت الطلبة الجزائريين، خاصة وأن الثورة كانت معتملة - بشكل أو بآخر - في تونس والمغرب المجاورتين للجزائر.

فتفاعل الطلبة مع الثورة منذ انطلاقتها¹، فانطلقوا بدورهم للقيام بالواجب الملقى على عاتقهم، فشارك الطالب... إلى جانب متابعتة لدروسه في ثورة شعبه الصامد في كفاحه فعرف بقضية بلاده، وانتقد السياسة الاستعمارية بقلم (فني) ولكنه سام ولاذع فتاك... كما حطّم فريق آخر من الطلبة اقلامهم واثروا مخاطبة الاستعمار بما يفهمه، والتحدث اليه بلغة صريحة لا تقبل التأويل هي لغة الرشاش والقنابل اليدوية...².

وكان هناك طريق ثالث لإظهار الثورة على الاستعمار، وهو الإضراب اللانهائي عن الدراسة، كما فعل باقي الطلبة الجزائريون المنبشون في فرنسا والجزائر الذين اضرَبوا منذ 19 ماي 1956 فأضرب الطلبة الجزائريين بتونس استجابة لنداء جمعية الطلبة الجزائريين³ اظهروا ذلك على صفحات الجرائد⁴ إلا أن البعض لم تقنعه هذه الخطوة واعتبرها قاصرة عن أداء المهمة، ولا يرى حلاً إلا الالتحاق بالجبال والأخذ بثأر ضحايا

¹ مراسلة الدكتور يحيى بو عزيز بتاريخ 24 مارس 1998.

² حمادي بغريش، تحية أهية إلى الطالب الجزائري من شاب تونسي، الصباح، 17 ماي 1957، ص 03.

³ نداء إلى جميع الطلبة الجزائريين، الصباح، 29 ماي 1956، ص 02.

⁴ الطاهر وطار وأنا واحلون، الصباح، 06 أكتوبر 1956، ص 03.

الاستعمار الأبرياء¹ لم يظل ينتظار هؤلاء، حيث صدر نداء الطلبة الزيتونيين للعودة إلى الدراسة في سبتمبر 1956² رغم أن الإضراب تواصل في الجزائر وفرنسا إلى غاية أكتوبر 1957³ والسبب في ذلك هو حرص جبهة التحرير الوطني على المستقبل الدراسي لإطارات الجزائر المستقبلين بتفادي الانقطاع الطويل عن الدراسة، خاصة وأن كل الدلائل كانت تشير إلى أن نهاية الحرب في الجزائر لن تكون في القريب العاجل⁴.

رغم مشاركة وامتثال الطلبة لقرارات جبهة التحرير، إلا أن الملفت للانتباه هو أنهم لم ينضموا إلى الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

بمجرد تأسيسه سنة 1955. ويبدو أنه كانت هناك خلافات بين الطلبة⁵ بين مجموعة تريد الاحتفاظ بجمعية الطلبة الجزائريين كإطار تقليدي ممثل للطلبة⁶ وبين مجموعة أخرى تريد إنشاء جمعية جديدة ربما لتكون فرعاً للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين⁷ استمرار الخلاف أدى بالطالب يحيى بوعزيز إلى كتابة مجموعة مقالات بعنوان رسالة الجمعيات⁸، حاول فيها

¹حمادي بغيريش، كو كنت ثائراً، الصباح، 08 جوان 1956، ص 04.

²نداء من جمعية الطلبة الجزائريين، الصباح، 28 سبتمبر 1956، ص 04.

³Guy PERVILLE, « les étudiants algériens en guerre, 1955-1962 » in armée, guerre et politique, en Afrique du nord : XIXe-XXe siècles, Ed. Presse de l'École Normale Supérieure, Paris, 1977, p 69.

⁴Ibid.

⁵نداء من الاتحاد العام، الطلبة المسلمين الجزائريين إلى الطلبة الجزائريين بتونس، الصباح، 22 مارس 1956، ص 03.

⁶يحيى بوعزيز، لم يختلف أبداً...، الصباح، 04 مارس 1956، ص 04.

⁷إبراهيم زعيوب، حلام مختلف، الصباح، 24 فيفري 1956، ص 03.

⁸الصباح، 20 ديسمبر 1956 و1.04.16.27 جانفي و06 فبراير 1957.

تشریح عمل واهداف وأهمية الجمعيات بل وحتى كيفية النضال داخلها، ودعا إلى الوحدة في العمل، إلا أن دعوته ذهبت ادراج الرياح، ولم يتخلف إلا بتدخل جبهة التحرير الوطني وانهاؤها الوجود الرسمي لجمعية الطلبة الجزائريين بالدعوة إلى انتخاب فرع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في 12 ماي 1957¹ واستيعابهم في هياكل الجبهة، كمجندين أو مكلفين بأعمال الدعاية والتموين وتعليم اللاجئيين والإشراف على مرافق حيوية متعددة².

التزام الطلبة قضايا وطنهم، جرّ عليهم نقمة الاستعمار. ففي صيف 1956 وأثناء العودة إلى الجزائر تعرض الطلبة أما للقتل أو الاعتقال من قبل قوات الاحتلال في الحدود التونسية الجزائرية³. الأمر الذي حرم الطلبة من رؤية الأهل إلى غاية الاستقلال، وانقطعت عنهم معونات الأهل، الشيء الذي سبب لهم مشاكل - لا حد لها - لتدبير معيشتهم، فأضحى الطلبة يقيمون أودهم على الخبز والماء⁴، مما حدا بالطلبة الجزائريين الالتجاء إلى وزارة المعارف التونسية لتتكفل بما لا يقل عن 500 طالب جزائري اضحوا

¹ الصباح، 11 ماي 1957.

² محمد الصالح الجابري، وآخرون، الأدب العربي شمال إفريقيا: مقالات نقدية، وبيبلوغرافيا وصفية، دار مهجر كمبرج ماساشوسس 1982، ص 37.

³ محمد الطاهر غيلفي، معاملة فرنسا الشرسة... للطلبة الجزائريين الصباح، 23 ديسمبر 1956، ص 03.
⁴ يحيى بو عزيز حول نصيب، معركة الشرق والغرب: هكذا نبغي الأدب يا شباب الأدب، الصباح، 28 ديسمبر 1956، ص 04.

في حكم الفقراء المعدمين¹، لتتقدمهم من الجوع ومن السكن غير اللائق الذي هو أشبه بمبولة منه إلى سكن للبشر². وناشد الطلبة الوزارة التدخل، حتى لا يكفر الطالب الجزائري بالأخوة والجوار وهو يرى نفسه مهملًا دون تكفل بحفظ كرامته من التسول. ورغم المساعدة التي قدمها الملك محمد الخامس لهم والمقدرة بمليونين من الفرنكات، حين زيارته إلى تونس في أكتوبر 1956³، فإنه كان لا بد من تدخل الرئيس الحبيب بورقيبة للتخفيف من معاناة الطلبة الجزائريين وذلك قبل أن تندمجهم الجبهة في هياكلها - كما ذكرنا سابقًا - وتعهد اليهم فيما عهدت - أمر الدعاية للثورة.

¹ يحيى بو عزيز، إلى وزارة المعارف التونسية: المشروع الاجتماعي في الميزان، الصباح، 20 أكتوبر 1956، ص 03.

² خطاب مفتوح من جمعية الطلبة الجزائريين إلى سعادة وزارة المعارف، الصباح، 07 نوفمبر 1956، ص 02.

³ جمعية الطلبة الجزائريين وجمالة السلطان أسد المغرب العربي، الصباح، 11 نوفمبر 1956، ص 04.

الفصل الثالث : تتويج الثورة الجزائرية

1. الدعاية للثورة

الدعاية أحد أهم الأعمدة الداعمة لأي عمل، يراد له النجاح والكمال، والثورات في حاجة ماسة للدعاية لترويج أفكارها وأطروحاتها والتي - في الوقت ذاته - على أعدائها ودعايتهم المضادة ومن يكسب معركة الدعاية يضمن حظوظا وافرة لحسم الصراع لصالحه، لأن... معركة الأفكار لها أهمية أكبر من حرب الأسلحة...¹.

لم تكن السلطات الاستعمارية غافلة عن هذا العامل الهام وكان لها باع طويل من خلال فرق العمل السيكولوجي للرد على دعاية جبهة التحرير وبث دعايتها الخاصة، وكانت الصحافة التونسية - التي تعكس حالة الوجود الجزائري في تونس - في نطاق عملها². هذا العمل، ضاعف من ثقل المهمة على كاهل من كتبوا في الصحافة التونسية من الجزائريين، لأنهم دائما واقعون تحت المجهر، إلا أنهم أدوا المهمة حسب المستطاع.

¹ Benjamin STORA, la gangrène et l'oubli : La mémoire de la guerre d'Algérie, Ed. La découverte, Paris, 1991, p 20.

² Annie REY-GOLDZEIGUER, « la frontière algéro-tunisienne pendant la guerre d'Algérie dans les archives militaires de Vincennes » in Actes du VIIe colloque international sur la résistance armée en Tunisie aux XIXe et XXe siècles, tenu les 18, 19 et 20 novembre 1993, publication de l'institut supérieur d'histoire du mouvement national, Tunis, 1995, p 71.

مواضيع كثيرة كانت سجالا في ميدان الدعاية إلا ان الموضوع الرئيس الذي شغل أغلب المقالات، هو التنديد بفرنسا باعتبارها دولة استعمارية آثمة¹، مطبوعة على النذالة والخسة والتوحش²، وهذا ليس سببا وشتما - على رأي رشيد - ... فإن السباب والشتم هما رخص أنواع الكفاح، وأهون ضروب الحرب على الأعداء، وإنما نقوله - يضيف رشيد - سردا للحقائق، وتقريرا للوقائع، مبرهنين عليه بالدلائل والشواهد، مؤيدين إياه بأحكام المجتمع الدولي...³ وذلك لأن فرنسا تحولت إلى الضعفاء الأبرياء رامية إفناءهم وهم عزل من كل سلاح، وهي تملك كل سلاح، لا تكفي بقتل وتعذيب العباد لتمتد أيضا إلى مقدساتهم الدينية لتحطيمها والعبث بها. وهي تدعي أنها ممثلة لدين المسيح عليه السلام⁴ أيالبت البكر للمسيحية. إن فرنسا قد استعملت كل وسيلة، لإخماد هذه الثورة، غير أن الفشل كان من نصيبها⁵، لأن الشعب الجزائري هو الذي أفضل ذلك بالدرجة الأولى، وعى وجوده فستم معايشة فرنسا، لذا انبرى يكسر القيود التي تشده لها، كافرا بالوقت الذي كان فيه وقودا لحروبها، يموت ليعيش جلاذوه، ويشقى لينعم مستغلوه⁶.

¹ رشيد، متى يتعظ الفرنسيون، الصباح، 19 جانفي 1957، ص 03.

² أحمد بوروح الجزائري، حول صور من البطولة في الجزائر، الصباح، 31 اوت 1958، ص 03.

³ رشيد، للمصدر السابق.

⁴ محمد الشريف المقرابي، الاستعمار في الجزائر مختصرا، الصباح، 09 سبتمبر 1956، ص 03.

⁵ المصدر نفسه.

⁶ إبراهيم زعوب، الجزائريين أمس واليوم، الصباح، 31 اوت 1956، ص 03.

لقد رأى كتاب تلك الفترة الشعب الجزائري هو الذي سيدفع فرنسا
ثمن كل الجرائم التي ارتكبتها في حق الشعوب التي احتلتها¹. كيف لا
يفعلها وذاك الوعي هو المضاد الحيوي للهيمنة الأجنبية² يساعده في ذلك
الوضعية التي وصلت إليها فرنسا من جراء الهزائم التي تردت فيها منذ
بداية الحرب العالمية الثانية، حتى أضحت أمة من الدرجة الثانية³. لذا فمن
حق الجزائر رفض... أن تكون ذيلًا لدولة أصبحت ذيلولة⁴.

لم تعد دولة كهذه تخيف الجزائريين، وتهديداتها لم يعد لها نفس مفعول
أيام عزها⁵ حسن ما زال بإمكانها البطش والتدمير، إلا أن ذلك يشبه
انتفاضة الذبيح قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

إلا أنها ما زالت تكابر - في نظر الجزائريين، وترفض الاعتراف بالنتيجة
الحتمية لهذا الصراع، فترجح وتستريح، ومسبب ذلك أنها مصابة بمركب السمو
- على رأي عبد الله ركيبي - تخشى أن يخطف الجزائريون لقب الثورة منها،

¹ أمين بو عريو، إن الثورة الجزائرية قد وضعت النقط على الحروف يام. لاكوس، الصباح، 04 أوت 1956، ص 03

² Fernand BRAUDEL cité par Mohamed HARBI « Repenser le nationalisme algérien », Revue d'Histoire Maghrébine, n° 83, 84, juillet 1996, p 571

³ Jacques JULLIARD, « naissance et mort » de la IV République : 1947-1958, Ed. Calmann-lévy, Paris, 1968, p 176.

⁴ المهدي سعيد، الجزائري، لاكوس في شخص كوتي : حياة وهستيرية، الصباح، 10 أوت 1957، ص 03

⁵ محادي بنغريش، التهديد المزيف، الصباح، 15 جوان 1956، ص 03.

وهي التي بنت مجدها، وكسبت احترام الإنسانية على أنقاض ما تسميه الثورة الفرنسية لعام 1789¹.

هذا التسامي دفع فرنسا إلى التفاوض عن الحقائق التي تشير كلها أن الثورة من صنع أبناء الشعب الجزائري وليست موجهة من الخارج ومن مصر خصوصا²، الأمر الذي يؤدي إلى تورطها في الاعتداء الثلاثي - أكتوبر - نوفمبر 1956 - على هذه الأخيرة رامية القضاء على الثورة الجزائرية بضرب قواعد الخلفية، بل الرأس الموجه³، فكانت مؤامرة تحملت وزرها الحكومة الاشتراكية القائمة وقتذاك في شخص غي مولتي ولاكوست.

كان لأكوست الشخص الأكثر كراهية في الجزائر⁴، وذلك نظرا لطول مدة حكمه بالجزائر (من 10 فبراير 1956 إلى 13 ماي 1958)، وسياسته القمعية المعروفة بالتهدئة *la pacification*، هاته السياسة البشعة أهلته لأن يشبهه الجزائريون بأدولف هتلر⁵ إنه - في نظرهم - مجرم حرب يجب أن يحاكم، إن أمام الشعب الفرنسي أو أمام الشعب الجزائري⁶ ليجيب عن الجرائم التي ارتكبها في حق هذا الأخير والتي تصاعدت مع الهجمة التي سماها بالربيع الساعة الأخير قبل القضاء على المتمردين التي أضحت ماثرا

¹ عبد الله ركيبي الجزائري، مركب السموم... والاستعمار في الجزائر، الصباح، 12 أبريل 1958، ص 03.

² حمادي بنغريش، بالمعنى... لا بالفكر، الصباح، 05 جويلية 1956، ص 03.

³ يحيى بوعزيز، معركة القنال وثورة الشعب الجزائري، الصباح، 17 نوفمبر 1956، ص 03.

⁴ Jacques CHEVALIER, nous, algériens..., Ed. Calmann-lévy, Paris, 1958, p 145.

⁵ مراسل خاص، زويير لأكوست خليفة هتلر وتلميذه الوفي، الصباح، 15 جوان 1957، ص 03.

⁶ رشيد، الجزائر في معركة التحرير، الصباح، 05 جانفي 1957، ص 04.

سخرية الجزائريين من كثرة تأجيله ساعة الحسم مع التمرديين، وكثرة تأكيده على ربيع الساعة الأخير، والذي لم يته¹، واعتبروه ربيع ساعة الأخير لنهايته وهزيمته أمام الشعب الجزائري رغم بعض الانتصارات التي حققها مثل القرصنة الجوية وأسر زعماء الثورة واحتجاز الباخرة أتوس².

لقد عدّ الجزائريون على لاكوت تصريحاته للصحافة وكانت عمل رد لتسفيه الآراء التي جاءت فيها³، وحتى محاولاته خلق البلبلة في الأوساط الجزائرية - من خلال تزوير منشورات ونشريات جبهة التحرير الوطني - لم تمر دون التشهير بها وفضحها على صفحات الجرائد التونسية⁴.

إن لاكوت وتزامنا مع سياسته الأمنية التي عانى منها الشعب الجزائري عناية فظيعة، حاول إدخال مجموعة من الإصلاحات البلدية والإدارية للسماح لأكبر عدد من المسلمين ولوج الوظيفة العمومية على أمل القضاء على نفوذ جبهة التحرير الوطني وسط الجماهير، ومن ثمة كسبها لجانب فرنسا⁵. وهذا الشيء مستحيل - يجيب الجزائريون - ولن تنطلي هذه الخدعة علينا، خاصة وأن القمع يزداد ضراوة يوما بعد يوم، وأن الشعب قد اختار وجهته النهائية

¹ يحيى بو عزيز، الآن يام، لاكوت...، الصباح، 12 جانفي 1957، ص 01.

² يحيى بو عزيز، بعد ركوع أيدين وموللي - سجد لاكوت أمام ثورة الجزائر، الصباح، 05 جانفي 1957، ص 03.

³ حمادي بنفريش، حول رد لاكوت : لا في الأول، ونعم... في الثاني، الصباح، 12 جويلية 1957، ص 02.

⁴ يحيى بو عزيز، من اعترافات لاكوت، نجما الجزائر حرة مستقلة...، الصباح، 02 مارس 1957، ص 03.

⁵ Yves courrière, la guerre d'Algérie : L'heure des colonels, T3, Ed. Fayard, Paris, 1970, p 26.

إلى جانب جبهة التحرير، وما إضراب يوم 05 جويلية 1956 إلا برهان على هذا الاختيار¹.

لقد كان لاكوست أسير الأطروحات المستعمرين وقياداتهم بالجزائر، ولم يستطع الفكك منها إلى أن طرد من الجزائر مهانا من طرف من أخلص في خدمة أهدافهم طوال مدة حكمه وتوالي الحكومات.

الملاحظ أن رؤساء الحكومات الفرنسية لم يتعرضوا - مباشرة - للنقد بالقدر الذي تعرض له الوزير المقيم بالجزائر روبر لاكوست. ولعل ذلك راجع - وبخلاف الأسباب التي ذكرناها سابقا - إلى أنه قام بالعمل القذر بدلا منهم. وقد تحمل غي موللي شريك لاكوست في الجرائم المرتكبة في حق الشعب الجزائري النصيب الأوفر مقارنة بهؤلاء². لقد انتقد على محاولته تجاوز جبهة التحرير عند البحث عن حل سلمي للقضية الجزائرية بثلاثيته المعروفة : استسلام الثوار، ثم إجراء انتخابات حرة ونزيهة عبر مجمع انتخابي موحد وذلك لتعيين محاورين أكفاء من الطائفتين المسلمة والأوروبية للنظر في الاصلاحات الواجب إدخالها في الجزائر³. فالتقفز على جبهة التحرير معناه إبقاء الأوضاع على حالها أي استمرار المأساة الجزائرية⁴.

¹ أحمد الشريف المقراني، الجزائر تستوحي سياستها من الخارج، الصباح، 04 سبتمبر 1956، ص 02.

² جزائري، بعد عشر سنوات، الزهرة، 27 جويلية 1956، ص 01.

³ Henri ALLEG (s. dir), la guerre d'Algérie, T2, p 25.

⁴ مفدي زكريا - محمد الحاج الناصر، فلتحدث حديث رجل مع رجل، ولتفاهم بشكل أوضح، الصباح، 12 فيفري 1956، ص 03.

ازداد النقد لغي موللي بعد إعلانها أنه يتحمل المسؤولية كاملة بعد قرصنة الطائرة المغربية المقلدة للزعماء الجزائريين واعتقالهم - كما شهدنا سابقا - . هذا الاعتقال أو القرصنة الجوية الأولى في العالم قبرت جهودا كانت تبذل لإيجاد حل سلمي للحرب الدائرة في الجزائر - التي لم تعترف بها فرنسا إلا يوم 05 أكتوبر 1999 - من خلال عقد ندوة للسلم في تونس في أكتوبر 1956 بمشاركة الدولتين المغاربتين حديثي الاستقلال¹، لتخرج هذه الكتابات بتيجة واحدة وهي أن هؤلاء الزعماء أصبحوا رمزا بل فكرة تلقفها الشعب واحتضنها، ولن تستفيد فرنسا شيئا أن تقبض على أشخاص وتضعهم وراء القضبان، بل العكس هو الذي يقع وتأخذ الثورة الجزائرية زحما جديدا لمواصلة كفاحها، كما أن كتاب المقالات وجدوا مبررات جديدة للرد على كتاب فرنسيين - كتبوا ضد الثورة أو على الأقل شككوا فيها - وذلك بتفنيد ما جاء في الكتابات الفرنسية - مما يعتبرونه - مغالطات مفضوحة² أو بالعكس من ذلك تماما التنويه ببعض من هذه الكتابات وتقديمها كدليل على صدق ما يكتبه الجزائريون حول فظاعات السلطات الاستعمارية المرتكبة في الشعب الجزائري وليس أحسن من وشهد شاهد من

¹ محمد فضيل، يومان من تاريخ الجزائر المكافحة، الصباح، 23 ديسمبر 1956، ص 03.

- عبد الحميد، النصر لنا يا فرنسا، الصباح، 23 ديسمبر 1956، ص 03.

- عيسى مسعودي، صرخة... من جمعية الطلبة الجزائريين، الصباح، 25 أكتوبر 1956، ص 03.

² عبد العزيز ابن دادة، من المجرم الإرهابي؟، الصباح، 14 ماي 1958، ص 03.

- محمد الأخضر السائحي، نعالين على مقالات : الجزائر كما رأيتها، الصباح، 23 سبتمبر 1956، ص 03.

أهلها¹. الملاحظ في هذه المتابعات للكتابات الفرنسية أنها تتم من خلال الصحف التونسية وخاصة جريدة الصباح التي كان يقوم فيها - الدكتور عبد الله شريط بترجمة ملخصات لمقالات تهتم بالثورة الجزائرية في الصحافة العالمية²، أو من خلال صفحة الأحد الثقافية التي كان يشرف عليها محمد إبراهيم المليي ويقدم في بعض حلقاتها ملخصات لكتب أجنبية تتحدث عن ثورة الجزائر³.

على عكس ما كانت تفعله السلطات الاستعمارية من مناكير، فإن الثورة ممثلة في رجال جيش التحرير الوطني كانوا - في نظر الجزائريين - في قمة الإنسانية واحترام قوانين الحرب، من استثناء المدنيين الأوروبيين من عملياتهم، لأنهم يمثلون لوصايا الرسول عليه السلام - الدعاية لعدم التعرض للمدنيين والزهاد وحتى الشجر أثناء الحروب⁴. كانت معاملة الأسرى معاملة حسنة أما المثقفين منهم فكانت معاملتهم خاصة جدا، على عكس ما كان يفعله الجيش الفرنسي، حيث أن '... الثقافة في الجزائريين [...]' بمفردها جريمة توجب أشد الضروب وأفظع النكال وتبرر الإعدام والاعتقال. إن المثقف الجزائري عرضة لإعدامه بمجرد أن يسقط في يد الفرنسيين...⁵

¹ يحيى بو عزيز، في عام الثورة، أرقام البؤس الجزائر حثف الاستعمار...، الصباح، 09 نوفمبر 1957، ص 03.

² مراسلة الدكتور يحيى بو عزيز مؤرخة بتاريخ 24 مارس 1998.

³ محادثة مع الدكتور محمد المليي بتاريخ 25 نوفمبر 1997.

⁴ محمد الطاهر خليف، رجال الثورة وتمسكهم بالمبادئ الإنسانية، الصباح، 25 أوت 1956، ص 03.

⁵ مراسل خاص، أسيران مثقفان من الجيش الفرنسي (يمن) عليهما جيش التحرير ويطلق سراهما إكراما لثقافتهما، الصباح، 20 أبريل 1957، ص 03.

والسبب في ذلك السلوك راجع إلى أن الشرف والكرامة والإنسانية [تختلف] الوازع الديني طبعاً [تأبى] على جيش التحرير المقابلة بالمثل للجريمة بالجريمة والفظائع بأهول منها مع أنهم لو فعلوا ذلك لما كانوا ملامين لأن الشر بالشر والبيادي أظلم.

ولكننا - يقول صاحب المقال - لمحارب حرب الشرفاء من أجل قضية شريفة، لن نلطح تاريخ كفاحناء، وقدسية ثورتنا يمثل هذه المنكرات...¹ إذن هذا السلوك الملتزم بقوانين الحرية يفند الدعاية الفرنسية التي تصور جنود جيش التحرير على أنهم عصابات من قطاع الطرق لا هم لم لهم إلا السلب والنهب.²

إن هذا الالتزام، يتحول إلى ضرب بيد من حديد حينما يتعلق الأمر بالتعاونين مع السلطات الاستعمارية من الجزائريين. وتلقى هذه الشدة صدى في الصحافة التونسية لأنه من المفروض على الثورة... أن تكسح هذه الطائفة الخبيثة من الأمة التي وقفت حجر عثرة في طريق الجيش التحرير...³ حتى لو كان ثمن ذلك تهديم عروش بأكملها وتسويتها بالأرض.⁴ رغم أن هذه الأعمال ضد هذه الفئة استمرت طوال سنوات الثورة إلا أن عملية من حجم اغتيال علي شكّال وهو بجانب رئيس الجمهورية الفرنسية روني كوتي René COTY من طرف القذافي محمد

¹ المصدر نفسه.

² محمد الشريف المقرابي، المجاهدون الجزائريون ديمقراطيون، الصباح، 20 أكتوبر 1956، ص 03.

³ يحيى بو عزيز، أعمال الوحشية في الجزائر: من أجل حياة غانن، الصباح، 06 أكتوبر 1956، ص 03.

⁴ المصدر نفسه.

صدوق هي التي تأخذ الصدى الأكبر في كتابات الجزائريين أو في الصحافة العالمية¹.

أصداء كهذه تزيد من تسليط الأضواء على ثورة الجزائر وبالتالي الاهتمام بها الشيء الذي يساعد على إطلاق الدعوات لشباب الجزائر للالتحاق بالثورة² مع استعمال طرق الإغراء لتحقيق هذا الهدف³. وأكثر هذه الطرق اغراءات التمجيد الذي يرافق استشهاد المتمين للثورة⁴. كما أن رمزي الجزائر الخالدين الأمير عبد القادر والشيخ ابن باديس رُمي بهما في هذه المعركة معركة استنهاض الهمم للثورة باعتبار أن الأول هو الذي قاد المقاومة المسلحة عند بداية الاحتلال وهو في سن الشباب وهو المثل في الإقدام والتضحية. إنه المعلم الخالد للوقوف أمام الاستعمار الفرنسي، الشيء الذي يجعل عبد الرحمان شيبان يعتذر عن الكتابة عن الجانب الأدبي للأمير في الظروف التي تعيشها الجزائر⁵. أما الثاني فصور على أنه لو كان بينهم ما اختار إلا السلاح لمخاطبة الاستعمار، وما رضي إلا بصحبة الثوار⁶.

¹احادي بقرش، بعد مصرع شكال : الاستعمار الفرنسي بلا رأس ولا ذنب، الصباح، 02 جوان 1957، ص 03.

²محمد ريب، همسات من صميم الثورة الجزائرية، الصباح، 04 ماي 1957، ص 03.

³محمد الطاهر خيلفي، نياحة حول الجبل، الصباح، 01 نوفمبر 1956، ص 03.

⁴محمد الطاهر خيلفي للشهيد، الصباح، 15 ديسمبر 1956، ص 03.

⁵أبو عبد الله، تحية إلى شهيد، الصباح، 28 جويلية 1957، ص 03.

⁶م. ب. آيت حسن لعزيمان البطل الجزائري الشاب يلفظ أنفاسه وهو يكافح في سبيل حرية الجزائر، الصباح، 25 أبريل 1953، ص 03.

⁷أبو الرحمان شيبان، الجانب الأدبي عند الأمير عبد القادر، الصباح، 15 مارس 1957، ص 03.

⁸محمد بقرش، أبو الشعب الجزائري الثوار، الصباح، 20 أبريل 1958، ص 03.

هؤلاء الثوار الذين اظهروا براعة وشجاعة نادرين كانتا مثار واعمجاب في المقابل صور جنود الجيش الفرنسي في منتهى الجبن وخور العزيمة كلما كان في مواجهة جنود جيش التحرير الوطني¹ حتى في المعارك والمواجهات التي يكون فيها الاختلال العددي يفوق واحد من ثمانين² والتي تنتهي في العادة بخسائر فادحة في الجانب الاستعماري³

لعل هذه الخسائر جعلت الدعاية الاستعمارية تركز على أية دلائل يمكن أن تؤدي إلى تفريق صفوف جبهة وجيش التحرير الوطنيين، فعمدت إلى اطلاق الإشاعات حول وجود انقسام جيش التحرير الوطني إلى مجموعتين، مجموعة عربية، وأخرى قبائلية. إلا أن الرد كان سريعا وحاسما مفاده لا وجود للانقسامات بين فئات المجتمع الجزائري وخاصة بين أفراد المجاهدين⁴ إلا أن ما أثر في الجزائريين وأثار استياءهم أن الإشاعات ترددت عبر صفحات الجرائد المصرية خاصة جريدة الجمهورية الرسمية الأمر الذي نبه الجزائريين إلى وجوب وضع العرب في صورة الجزائر المجاهدة وكسبهم لقضيتها العادلة، وبعدها غزو العالم لحشد التأييد، والمساندة على درب تحقيق الغاية التي من أجلها قامت الثورة.

¹مراسل خاص، إعدام النشاط التجاري ببعض أنهب مدينة (قسنطينة)، الصباح، 08 جوان 1957، ص 03.

²محمد الصالح الصديق، من صور البطولة في الجزائر، الصباح، 13 أفريل 1957، ص 02.

³يحيى بو عزيز، ساحات الوعي تحذيري، الصباح، 02 سبتمبر 1956، ص 02.

⁴محمد الشريف المقرائي، جيش التحرير الجزائري والقبائل، الصباح، 06 أكتوبر 1956، ص 03.

2. الدعوات لتأييد الثورة الجزائرية

رغم التضحية والتجند وراء الثورة التي أظهرتها الغالبية الساحقة من الشعب الجزائري المؤمنة بحقيها في التحرر عن طريق الثورة، فإن هذا كان غير كاف لوحده، نظرا لاختلال موازين القوى المادية بين الطرفين المتحاربين. لذا كانت المساندة والمساعدة الخارجية ضرورية لاستمرار الثورة أولا ولتحقيق الهدف ثانيا.

لقد تحول الجزائريون بأنظارهم شطر إخوانهما الأقربين - وتعني بهم شعبي تونس والمغرب - لأن - في المقام الأول - الأمر بهما مباشرة وأكثر من غيرهم، فاستقلال تونس والمغرب سيبقى ناقصا ومهددا من قبل فرنسا ما دامت الجزائر لم تستقل بعد¹ فالجزائر بمثابة القلب من الطائر الذي جناحاه المغرب وتونس، ويوم سددت فرنسا سهمها للقلب سقط الطائر، وعجز الجناحان عن فعل أي شيء وسقطا في الأسر دون مقاومة². وفي هذه الحالة العبرة في الاحتفاظ بالحرية وليس في استرجاعها³. إذن مساعدة الجزائر هي ضمان الاحتفاظ بهذه الحرية التي دفع البلدان في سبيلها ثمنا باهظا بعد أن يفهما أن الاستعمار لا يفقه إلا لغة الحديد والنار⁴. إن الاعتداءات التي شهدتها البلدان، والمرتبطة بالحرب الدائرة في الجزائر من قبل اختطاف زعماء الثورة وهم متجهون لندوة للسلم، أو جريمة ساقية سيدي يوسف، أو

¹ عبد الرحمان شيبان : عيد تونس عيدنا، الصباح، 20 مارس 1957، ص 02.

² المصدر نفسه.

³ الطاهر وطار، هات يدك يا أخي التونسي، الصباح، 12 أوت 1956، ص 03.

⁴ يحيى بو عزيز، قضية الجزائر مشكلة العرب يا قوم...، الصباح، 10 أوت 1957، ص 03.

أحداث رمادية، كانت يراهم على هشاشة استقلال البلدين وعلى خطورة التواجد العسكري الفرنسي في الدولتين والحل هو مساعدة الشعب الجزائري الذي يتكفل بإخراج هؤلاء القوم المعتدون من كامل المغرب العربي¹.

حينما رفع الجزائريون أصواتهم لطلب المساعدة من الأشقاء وحثهم عليها² حتى يكون المغرب العربي أهلا للحرية التي حصل عليها جزء ويكافح من أجلها جزء آخر حدثت الاستجابة لندائهم. الكل يحاول أن يقدم ما يقدر عليه، سواء أكانوا من ذوي المسؤوليات³ أو من بسطاء الناس بل وحتى المتسولون المعدمون شاركوا في ذلك⁴، مما كان له الأثر الفعال في ازدياد لحمة الأخوة بين اجزاء المغرب العربي، لتصل قممها بعد مؤتمر طنجة سنة 1958، مع ما ظنوه ميلادا للوحدة المغربية [أوالمغربية] كمرحلة أولى نحو الوحدة العربية⁵.

سعى الجزائريون بعد ما كسبوا الشعب المغربي لقضيتهم، إلى تحقيق نفس الشيء مع الدول العربية لأنه بقدر ما تتسع دائرة التأييد المادي والمعنوي - للثورة، زادت فرص النجاح أمامها لتحقيق ما تصبو إليه.

¹احادي بغريش، تونس منا وإلينا، الصباح، 30 ماي 1958، ص 02.
²الطاهر وطار، المصدر السابق.

³يحيى بو عزيز، الصباح في معارك التحرير: صوت الجزائر الحرة، الصباح، 27 أكتوبر 1956، ص 03.
⁴بورج الجزائري، أسبوع الجزائر بليبيا الشقيقة، الصباح، 12 أبريل 1958، ص 03.

⁵احادي بغريش، انتصار آخر لشعبنا المغربي الكافح، الصباح، 09 ماي 1958، ص 04.

لقد تقدموا لمصر بالشكر لأبائها البيضاء لفائدة اشباح الثورة الجزائرية¹. ولأن عاصمتها القاهرة أصبحت عاصمة العرب كافة، عبور القومية العربية بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر وقبر الاستعماريين². فالمساعدة المصرية أساسية في دنيا العرب، خصوصا بعد العدوان الثلاثي الذي نُظر إليه على أنه انتصار لمصر والعرب نظرا لقوة الجيش المصري³ الذي أضفى الأمل في طريق التحرر العربي⁴.

رأى الجزائريون أن الدعم المقدم لهم من قبل إخوانهم العرب غير كاف، خاصة حينما يكون هذا الدعم معنويا فقط، فليست... الاحتجاجات والمظاهرات الشعبية ولا حتى مقاطعة الحكومات الغربية بكافية لرد القمع، فالاستعمار جدير بأكثر من هذا وهو يستحق زيادة عن المظاهرات والاحتجاجات، شيئا آخر أجدى وأقوى، لإيقاف ناره عناء جعل حدا للمأساة الجزائرية⁵. أنه لا يجدي الكلام ولا النواح أيها العرب - يصرخ الجزائريون - إنما ثورة على ثورة... فهلموا... لتنتصر الجزائر أو تموت فداء لعروبتنا⁶، حتى لا يقع للجزائر نفس الشيء الذي وقع لفلسطين، فقد تشرد

¹ يحيى بو عزيز، مرحبا بعميد الأدب الدكتور طه حسين...، الصباح، 18 جويلية 1957، ص 03.

² يحيى بو عزيز، تحية القاهرة، الصباح، 24 ماي 1957، ص 03.

³ يحيى بو عزيز، بعد ركوع إيلدن موللي : سجد لأكوست أمام ثورة الجزائر...، الصباح، 05 جانفي 1957، ص 03.

⁴ يحيى بو عزيز، قاهرة العرب منبع عز العرب، الصباح، 17 مارس 1957، ص 02.

⁵ سمادي بنريش، من وحي بيان جمعية العلماء الجزائريين، الصباح، 13 ماي 1956، ص 04.

⁶ الطاهر وطار، لا يجدي الكلام ! وإنما التطوع في جيش الجزائر، الصباح، 02 سبتمبر 1956، ص 03.

مليون فلسطيني، بعدما ضاقت فلسطين، رغم الكثرة العظيمة للعرب¹ والسبب في ذلك تأمر حكام العرب على بعضهم البعض أنهم يضم فلسطين إلى أراضيهم، وفي الحملة تقاعسوا في توفير وسائل الأمن والسفاح، وكانت الكارثة²، فوجب عقد المقارنة بين الحالتين حتى لا تتكرر الكارثة مرة ثانية³ الجزائر في محتها هذه في حاجة إلى إعانة عربية فعالة، أي فتح أبواب التطوع لنصرتها⁴، أما السكوت والتردد والتخاذل، أمر مرفوض عنه وتفصيلاً⁵، بل انه يجب تعطيل الاحتفال بالأعياد القومية والدينية إلى غاية تحرير آخر قطعة من العالم العربي من الاستعمار⁶.

وإن تتجاوز دائرة التأييد للثورة الجزائرية الوطن العربي فإن الأمر يكون أحسن، وأؤكد لشرعية الثورة، وهيئة الأمم المتحدة أرفع المنظمات العالمية التي يمكن من خلالها إيصال صوت الجزائر المجاهدة إلى كل العالم.

كانت مناسبة انعقاد الجمعية العامة هيئة الأمم المتحدة فرصة لإثارة قضية الجزائر. وكان كتاب تلك الفترة يهتمون بهذه المناسبات ويعتقدون عليها. فمن جهة يودون كسب التأييد الدولي من خلال الأمم المتحدة، ومن

¹ يحيى بو عزيز، حول ذكرى 05 جويلية 1830 - عيد بناء حال عدت يا عيد، الصباح، 01 جويلية 1957، ص 02.

² الجنيدي خليفة، رد بالجملة، ج 2، الصباح، 04 ماي 1958، ص 03.

³ يحيى بو عزيز، المصدر السابق.

⁴ الطاهر وطار، المصدر السابق.

⁵ سالم من الفطر الجزائري، آل العلماء المسلمين، الصباح، 05 جوان 1957، ص 02.

⁶ يحيى بو عزيز، المصدر السابق.

جهة يؤكدون على أن الشعب الجزائري هو الوحيد الذي يقرر مصيره¹، وذلك لتنفيذ الادعاءات الفرنسية والتي تعمل على إظهار ثورة الجزائر بل كفاح كامل المغرب العربي على أنه مستوحى من الخارج... فالمجاورون الأكفاء ليسوا التونسيين، أو المغاربة، أو الجزائريين، إنهم موجودون في القاهرة، موسكو، براغ، لندن، نيويورك ومدريد...². والهدف من هذه المغالطات التشكيك في مشروعية الثورة، ومصداقية تمثيلها للشعب الجزائري، ومن ثم كسب تأييد الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ورائها العالم الحر الذي تتزعمه للطروحات الفرنسية. هذه المزاعم رفضها الجانب الجزائري³ لأن... ثورة الجزائر ثورة شعب كامل بأسره، لا ثورة أفراد معدومين...⁴. شعب يملك إيمان بأن... مطلبه تفره جميع العقول والضمان والشرائع⁵ لأنه على حق. وتساءل الجزائريون... أليست بطولة الشعب الجزائري وصموده في الكفاح من أجل الحرية والكرامة والسلام، هي التي دفعت خروتشوف لأن يهتم بالقضية الجزائرية اهتماما بالغا ويكثر الحديث عنها [و] جعلت كل شعوب إفريقيا وآسيا يقومون بضجة عظيمة، تقيم الدنيا وتقعدها...⁶ فعلى فرنسا خلق أعذارا أخرى لاستجداء عطف أمريكا.

¹ إبراهيم زغبوب، الجزائر وعدالة مجلس الأمن، الصباح، 26 جويلية 1956، ص 03.

² Eugène GUERNIER « La question de l'Afrique du Nord : La situation au Maroc » in les problèmes d'Afrique du Nord. « L'académie des sciences coloniales », séances des 6 et 20 janvier, 3 et 24 février 1956, T. XVI, p 20.

³ محمد الشريف المقرابي، الجزائر تستوحى سياستها من الخارج، الصباح، 04 ديسمبر 1956، ص 02.

⁴ محمد الشريف المقرابي، قضية الجزائر وهيئة الأمم، الصباح، 02 ديسمبر 1956، ص 02.

⁵ بوعلام ابن زرقة، شعب عامد الله... وشعب عامد الشيطان، الصباح، 12 جوان 1956، ص 02.

⁶ حمادي بغيرش، الجانب المنهزم، الصباح، 05 أبريل 1958، ص 02.

لقد عرف الجزائريون قيمة الولايات المتحدة الأمريكية في العالم الغربي فتأجج الموقف منها بين التنديد لتساؤلها مع فرنسا، ومساندتها بسلاح الحلف الأطلسي وعدم كف يدها عن الشعب الجزائري¹ وبين الأمل في أن تتدخل في الأمم المتحدة لصالح القضية الجزائرية²، فقد كان لتصريحات عضو مجلس الشيوخ جون كيندي التي وصف فيها فرنسا بالجانب المنهزم وتوقع فيها استقلال الجزائر³، صدى طيب في نفوس الجزائريين، لكن تطلعاتهم بقيت على مستوى الأمانى ولم تترجم إلى أفعال ومواقف في الأمم المتحدة.

اعتمد الجزائريون على المجموعة الإفريقية الآسيوية لتأييد دبلوماسيتهم الناشئة ورغم التكتين الأوليتين عند عرض القضية على أنظار الجمعية العامة هيئة الأمم المتحدة برفض تسجيل القضية في جدول أشغال الجمعية العامة سنة 1955⁴، وكذا في الدورة التالية لعام 1956⁵، فإنه ابتداء من سنة 1957 وبعد إضراب الثمانية الأيام بدأت الأوضاع في التغير بأن أصدرت الجمعية العامة توصية فضفاضة تدعو فيها إلى البحث عن حل سلمي للوضع التي تعيشها الجزائر طبقا لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة⁶. وهذا رغم عدم تسجيل القضية على جدول الأعمال اعتمادا على مبدأ عدم

¹ يحيى بو عزيز، نقول هذا للتذكير، الصباح، 01 فبراير 1957، ص 02.
² الدكتور محمد الجزائري، الدورة الخامسة، الزهرة: 11 ديسمبر 1958، ص 03.
³ حمادي بغريش، المصدر السابق.

⁴ Annie REY-GOLDZEIGUER, op. cit, p 59.

⁵ Samya EL MACHAT, les États-Unis et l'Algérie : De la méconnaissance à la reconnaissance : 1945-1962, Ed. L'Harmattan «col. Histoire et perspectives méditerranéennes », Paris, 1996, p 117.

⁶ Henri ALLEG (s. dir), la guerre d'Algérie, p 438.

التدخل في الشؤون الداخلية لدول الأعضاء في الهيئة الأعمية¹. ويتهم بسبب ذلك مجلس الأمن بمخالفة الطغاة، الظالمين بدل أن يكون مجلس الإنصاف المظلومين من جلاذيتهم²، إلا أن القضية الجزائرية فرضت حضورها على الأمم المتحدة بطريقة أو بأخرى إلى غاية الاستقلال، ذلك الاستقلال الذي عمل الجزائريون على التحضير له، على الأقل بالتفكير فيما بعد الثورة.

3. تطلعات ما بعد الثورة

تكرر هدف الاستقلال، في كل الكتابات التي تداولتها الأقلام في الصحافة التونسية ابان الثورة الجزائرية، لكن من ناحية ثانية كانت

فضفاضة عند الحديث عما سنفعله بعد الاستقلال، أي مجتمع سيعيش في كتفه الشعب الجزائري وأي نظام سياسي سيحكمه. الشيء الوحيد الذي فكر فيه الجزائريون هو أن يكون مجتمعا حرا وديمقراطيا يتسع للجميع، حتى الجالية الأوروبية³ غير أنه يمكننا، ومن خلال بعض الكتابات اكتشاف طريقة تفكير الجزائريين فيما يصبون اليه بعد الاستقلال .

لقد كان الجزائريون يطمحون إلى مجتمع متعلم، يسود العلم جميع طبقات المجتمع الجزائري، خاصة وأنا الوضع التعليمي كان - كما ذكرنا سابقا - مزريا، رغم كل الجهود التي بذلت من قبل الشعب الجزائري، فلا غرو أن يكتب يحيى بو عزيز عشية الاستقلال عن الموضوع، دارسا إياه منذ بداية

¹ حمادي بنريش، فرصة أخرى... وأخيرة، الصباح، 17 اوت 1957، ص 03.
² إبراهيم زعوب، الجزائر وعدالة مجلس الأمن، الصباح، 26 جويلية 1956، ص 03.
³ عبد الرحمان شيبان، فقيه الأدب والفن الأستاذ أحمد رضا حوحو، الصباح، 29 مارس 1957، ص 03.

الاحتلال إلى نهايته، ليخلص أن الوضع خطير جدا بالنسبة للثقافة العربية¹، مما يستدعي التدخل بعيد الاستقلال لتصحيح هذا الوضع المختل والتميز بتأخر فكري رهيب²، لأن... تراثنا العلمي على مجده وروعته يقول - الجنيدي خليفة - لم يعد ليجدي بذاته نفعا بل لم يعد في جملته حتى مجرد علم...³ - بإعطاء الأولوية للحاق بالعلم الحديث، خاصة وأن العصر هو عصر... الكبات أفتك من القنبلة هـ، وعصر الكواكب الصناعية، وعصر احتلال المريخ أو القمر بعد سنوات أو أيام...⁴. ولن يتأتى ذلك - حسب الجنيدي خليفة دائما - إلا بغريلة هذا التراث وطرح منه ما لم يعد يساير الزمن الحاضر، فتعرض بسبب ذلك إلى هجمة من المتظاهرين بالتدين⁵ متهمين إياه بالمروق عن الدين والكفر، فاندلعت الحرب بين الطرفين بعد لائحة الجنيدي حول رمضان التي انتقد فيها المظاهر المصاحبة لرمضان في الميدان الفكري بتقديم للقراء كتب بالية وتافهة المضمون تتحدث عن قصص رأس الغول، وبقرة بني اسرائيل إلخ...⁵. وقد انحاز له الجزائريون وناصروه، خاصة إذا كان النقد ضروريا ليزيل عن الدين ما علق به من أوهام وخرافات⁶. ويجوصل الجزائريون الأمر في قول خليفة: 'إننا نريد من الدين مثل ما نريده من كل المنظمات العقائدية الفكرية أن تكون كلها في خدمة المجتمع، أن تساعدنا على التحرر الفكري والسياسي، أن تعيننا على الرقي المعنوي

¹ يحيى بو عزيز، مشكلة الثقافة العربية في الجزائر، الصباح، 14-21 جوان 1962.

² عبد الله ركيبي، تأخر الفكر... في مغربنا العربي، ج 1، الصباح، 12 مارس 1959، ص 04.

³ الجنيدي خليفة، رد بالجملة ج 1، الصباح، 03 ماي 1958، ص ص 02-03.

⁴ المصدر نفسه.

⁵ الجنيدي خليفة، لائحة حول رمضان إلى... المسؤولين عنه، الصباح، 15 أبريل 1958، ص 02.

⁶ عبد الله ركيبي، كلمة... حول معركة اللائحة، الصباح، 15 أبريل 1958، ص 02.

والمادي، أن تساهم في خلق حضارة قومية آلية - روحية، ومن ثم خلق حضارة انسانية يسود فيها الرخاء والسلام والعقل كافة أبناء الجنس البشري، فإن لم تفعل واكتفينا بالقعود والتراشق بالكفر والأمنالمغشوش، فستقرض لا محالة وسيخلفنا الأقوى الأصلح، وقد تنقرض [عندئذ] كل منظمة عقائدية وفكرية بما فيها الدين والتراث...¹. إذن على الجزائر أن تفصل في هذا الأمر، ثم تنطلق في دروب بناء اقتصاد وطني قوي².

إلا أن عليها أن تتفادي - للوصول إلى ذلك - المأزق الذي كانت تعيشه الدول العربية من خلال تحكم الأجانب في اقتصادها، لعدم قدرتها على إنتاج أي منتج مصنع فهي مجبرة على استيراد كل شيء حتى السلاح الذي تدافع عن نفسها به³، بينما بجانبها اسرائيل لم تكمل عقدها الأول بدأت تمارس عملية الاختراع وامتلكت أوليات صنع القنبلة الذرية⁴، والسبب في ذلك في نظر يحيى بو عزيز - هو فقدان الحرية الشخصية والتهافت على الكراسي والجلوس على المقاهي⁵. ومن ناحية أخرى بينما تتدفق في بلاد الغرب الابتكارات المنتجة عن عمل جماعي نجد مفكري العرب والمسلمين في العصر الحاضر يشحذون قرائحهم في التفرقة بين مرده الجن وأبالسة الشياطين... ويستترفون قوى مدخرات أمجادهم في سبيل الوصول إلى التربع على أريكة إماراة الشعر... وفي سبيل معرفة أن الدنيا قائمة على قرن ثور...

¹ الجنيدي خليفة، زد بالجملة، ج 1.

² جزائري، الازدهار الاقتصادي لا تحققه إلا حكومة وطنية، الصباح، 25 ديسمبر 1958، ص 03.

³ يحيى بو عزيز، رسالة الجمعيات ج 06، الصباح، 06 فبراير 1957، ص 02.

⁴ المصدر نفسه، الجزء الخامس، 27 جانفي 1957، ص 04.

⁵ يحيى بو عزيز، مكافحة الثقافة، الصباح، 08 مارس 1957، ص 03.

وان جهاز الراديو والتلفزة من حركات وأصوات الشياطين...¹ عدم نهية
الأرضية الاقتصادية بالبحث عن... الوسائل التي تجعلنا نستغني عن موارد
الغرب التي غزت اسواقنا... وارهقت اقتصادنا.... وأورثت خزائن
حكومتنا الإفلاس والانهيار... بل وجعلت منا متسولين حقيقة، ندعو الغرب
رافعين أكف الضراعة والدعاء إلى مسؤوليه، أن يملؤوا حفناتنا بفضلات
اموالهم وحاجياتهم متوسلين إليهم حتى لا يقطعوا علينا أعطيائهم².
الاستقلال الاقتصادي أحسن ضمان للاستقلال السياسي.

وحيثما تسندها دبلوماسية قوية وحيوية، ترفع صورة الوطن في السماء،
وخصوصا عندما يكون لهذه الدبلوماسية تاريخ قديم مشرق³، يمكنها من
استثماره للعودة مجددا على الساحة الدولية من جديد، باسترجاع الهبة التي
فقدت مع الاحتلال الفرنسي، ويكون الأمر أكد إذا دعمت هذه
الدبلوماسية قوة عسكرية⁴، لحماية الاستقلال الوليد وردع الأعداء عن
النيل من ترابها.

من المؤكد أن كل الكتابات، كانت تهدف إلى بناء دولة قوية، مرهوبة
الجانب، لها كلمتها المسموعة على المستوى العالمي، وذلك بالرجوع إلى
التاريخ العريق لهذه الدولة، إلا أن الهاجس هو دائما أن المحافظة على
الاستقلال أصعب من استرجاعه.

¹ يحيى بو عزيز، رسالة الجمعيات ج 6.

² يحيى بو عزيز، مكافحة الثقافة، الصباح، 08 مارس 1957، ص 03.

³ يحيى بو عزيز، علاقات الجزائر الدولية قبل 1830، الصباح، 15 جويلية 1962، ص 04.

⁴ يحيى بو عزيز، أضواء على تاريخ البحرية والأسطول الجزائري، الصباح، 05 أوت 1962، ص 04.

الخاتمة :

كانت الفترة المدروسة الواقعة بين 1947-1962 الفترة الأخيرة من الوجود الاستعماري بالجزائر، تميزت بازدياد الوعي الوطني بوجوب نهاية الاستعمار، لأنه في نظر المعاصرين لتلك الفترة سبب البلايا التي يعرفها القطر الجزائري.

إن من كتبوا في هذه الفترة - في الصحافة التونسية - من الجزائريين، سواء ممن كانوا يعيشون في تونس أو ممن كانوا يراسلون منها من داخل الجزائر لم تقل جراتهم ووعيهم بالأوضاع التي تعيشها الجزائر - بدون إهمال امتداداتها الطبيعية من مجال مغاربي وعربي وإسلامي، وإن كان التأكيد على المجال المغاربي كبيرا نظرا لأهميته في عملية التحرير قبالا وبعدا - عن باقي المنادين بحرية الجزائر وحتى أنك لتعجب من بعض المقالات كيف عرفت طريقها للنشر وهل تعجب ممن كتبها من الجريدة التي نشرتها ؟

طبعاً كان للوضع في الجزائر الحيز الأكبر من هذه الكتابات، فقد كان تتبع دقيق لما يجري في الجزائر، لوضع الجمهور التونسي في الصورة قصد كسبه إلى جانب شقيقته المعذبة¹.

كتب الجزائريون قبل الثورة وإلى غاية 1955 عن كل شيء.

¹ مراسلة الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السالحي.

عن الجانب السياسي كانت الكتابات تنديدا بالاستعمار والانتخابات المزورة التي استحقت اسم الانتخابات على الطريقة الجزائرية وأضحت علامة على كل انتخابات غير نزيهة، الشيء الذي يؤدي إلى الحديث عن الحرية، عن الديمقراطية والتساؤل عن وضعها في ظل النظام الاستعماري. لقد أظهرت هذه الكتابات ما كان يعانيه المجتمع الجزائري من ظلم وطفغان جعلته يسم نحو وحدة الفعاليات السياسية الجزائرية كشرط أساسي لتحرر الجزائر، ثم الوحدة المغاربية وبعدها الوحدة الإسلامية كهدف نهائي للتموقع ما بين القوتين العظمتين حينذاك.

عن الجانب الاجتماعي، اهتم الجزائريون بالأدواء التي تنخر المجتمع الجزائري. فقد نددت هذه الكتابات - وهي لأقلام إصلاحية - ببعض العقليات المتخلفة المتشددة في شروط الزواج والمهور مع حالة الفقر التي يعيشها المجتمع الجزائري مما يخلف آفات لم يعرفها المجتمع من قبل. إنها ظاهرة العنوسة التي تؤدي بدورها إلى آفة الزنى وهي لكبيرة في مجتمع محافظ كالمجتمع الجزائري. وطالبت هذه الكتابات بتعليم البنات الجزائرية لإخراجها من حالة الجهل التي تعيشها، وطالبت أيضا بتحريرها من قيودها، مما جعل الصدام مع المعارضين لهذه الدعوات لا مفر منه. وبما يحسب لهذه الحركة المطالبة بحرية المرأة هو مشاركة بعض النساء فيها حيث سُمح لكتاباتهم بالظهور في الصحافة التونسية فمنهن رئيسة الجمعية والتلميذة. كان المجتمع الجزائري يتحرك نحو حرته ووعيه بأن تعطيل نصف طاقاته، هو تعطيل مسيرته للتخلص من السيطرة الأجنبية.

عن الجانب الديني والعلمي : هو الموضوع الأهم الذي تراكت فيه المقالات، نظرا لأهميته في الحفاظ على الهوية الجزائرية فكانت هذه الكتابات انعكاس لما يعتمل في الجزائر لمقاومة التفریب والعمل الممنهج لضرب هوية الجزائري.

كان التنويه بأعمال جمعية العلماء ورجال جمعية العلماء جزء من عمل لإحباط تلك الخطة الرهيبة لمسح الجزائري عن أي فكرة للانتماء لا ندعي أن من كتبوا كانوا يقصدون بذلك عملا منهجيا، مخططا له، لكن نظن أن العبرة بالنتائج الحاصلة.

دور جمعية العلماء كان أساسيا من خلال عملها على المحافظة على التعليم العربي وتضحياتها في هذا المجال، مما يؤهلها للتكلم باسم الشعب الجزائري للمطالبة بإطلاق الدين الاسلامي وأوقافه للمسلمين على غرار ما تتمتع به المسيحية واليهودية، وقد بالغ الاستعمار في تدخله في كل كبيرة وصغيرة تخص الشعائر الاسلامية بتحديد مواعيدها وحتى التلاعب بها. ففي عام 1948، لم يتم تحديد هلال ذي الحجة إلى اليوم التاسع منه، مما أوقع الشعب في حيرة من أمره، فكانت صورة مبكية، مضحكة لشعب كأنه ملل ونحل، بعضه اضطر معها إلى الصلاة والتضحية مرتين، واحدة سرية وأخرى علنية وراء الإمام الرسمي والويل لمن ضبط يؤدي الشعيرة سرا؛ قمة الظلم التدخل في اعتقاد الإنسان بالإكراه.

لم تهمل هذه الكتابات اللغة العربية باعتبارها الركن الثاني في أساس الهوية الوطنية فأوضحوا مدى الظلم المسلط عليها، حين تعامل في بلادها كلفة أجنبية يمجّر تعليمها، وصوّروا لنا وضعية معلمي المدارس الحرة لتعليم

اللغة العربية، فهم يعاملون كالجنّة، بل أن الجنّة قد تأخذهم رحمة القاضي الاستعماري لكنها ما جربت أن تأخذ معلم اللغة العربية. إنها حالة مأساوية لتعليم عربي يحاول أن يقاوم، ويقف على رجليه وهو أعزل إلا من عزيمة شعب، يحاول أن يتشبث بمذوره الكل حسب مقدوره وفهمه.

كان للطلبة نصيبهم الأعظم من هذه الكتابات لإسماع صوت الجزائر. فبسطوا قضيتهم ووضعيتهم المعيشية السيئة بتونس ومختلف خطواتهم قصد تحسينها. وفي نفس الوقت الحديث عن المشاكل التي تعترض المتخرج من الجامع الأعظم حين العودة إلى الجزائر سواء فيما يخص العمل وعدم تكيف ما يتعلمه في الزيتونة مع الواقع. وهنا تحدث للطلاب أزمة نفسية، أزمة اختيار والاختيار ضيق وحتى الزواج بالنسبة له مشكلة في هذه الوضعية. وهذا لم يمنع الطلبة من المشاركة مع إخوانهم الزيتونيين في النضال من أجل القضية الزيتونية لتطويرها وإدخال الإصلاحات الضرورية على التعليم الزيتوني. وإن غابت الكتابات حول الأحداث التي كانت تعتمل في تونس سنوات 1952-1954، فلا نغال ذلك إلا بسبب الإرهاب الذي سلطته السلطات الاستعمارية على تونس، ولم تستثن منه أحد.

الملاحظ في هذه الفترة أن هذه الكتابات تقاسمها تياران وطنيان كبيران، مؤيدو جمعية العلماء من جهة، ومؤيدو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية من جهة أخرى.

وبينهما تقاسم للأدوار - وإن بطريقة غير كاملة - فمؤيدو جمعية العلماء، أغلب كتاباتهم كانت عن جمعية العلماء وعملية الإصلاح، وعن

شخصيات من العلماء، أما مؤيدو حركة الانتصار فكان عن الجانب السياسي من القضية الوطنية.

في الشق الثاني من الفترة التي ندرسها المحصورة بين 1955-1962 يمكن أن نلخصها في كلمة الثورة، ثم الثورة ولا شيء إلا الثورة.

تبدأ الكتابات الخاصة بالثورة بالظهور ابتداءً من سنة 1955، بصورة عتشة لتحاول أن تموقع الثورة في الوعي التونسي بمواجهة الإعلام الاستعماري، لتفي صفة الفلاحة وقطاع الطرق عن المكافحين الجزائريين التي ألصقتها بهم وكالة الأنباء الفرنسية التي كانت تستقي منها الصحافة التونسية أخبارها عن القطر الجزائري، فكان لا بد من تدخل البعض من الجزائريين - سواء هنا بتونس أو من داخل الجزائر حينما كان البريد ما يزال ممكنا - لتصحيح هذه الأنباء ووضعها في سياقها الحقيقي.

أظن أن الخلاف الوحيد والذي نشرته الصحافة التونسية هو الموقف من اتفاقات الحكم الداخلي والتي اعتبرت ضربة في ظهر الجزائر التي بدأت ثورتها لتوها فكيف لجناحي المغرب العربي أن يرفرفا في حين أن القلب مازال جريحا. وحجتهم في ذلك أن أيقاف القتال في جناحي المغرب العربي، يطلق يد فرنسا في الجزائر لتركز كل جهودها الإجهاض ثورة الشعب الجزائري، بأقل التكاليف بينما إذا نجحت الثورة فإنه يكون بعد دفع ثمن باهض جدا ووقت أطول مقارنة لو كانت الثورة عامة في المغرب العربي. كما أن استقلال البلدين الناقص، مستراجع عنه فرنسا بمجرد القضاء على ثورة الجزائر لتعيد سيطرتها على البلدين الثلاث كأشد ما تكون السيطرة.

ما بين 1956 - 1958 انفجرت الكتابات على صفحات الجرائد التونسية خاصة بعد استقلال تونس في مارس 1956 وليس معنى ذلك أن الجزائريين عزفوا عن الكتابة عن الثورة وإنما لأن وسائل النشر لم تكن قادرة على تمرير إنتاجهم. كما صرح لي بذلك الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السائحي.

يتحمل طلبة الزيتونة العبء الأكبر من عملية الإشهار للثورة، بعد أن انقطع ورود البريد من الجزائر والتي أصبحت سجنا كبير الأكثر من ثماني ملايين جزائري، كما أنه في نفس الوقت حجر دخول الصحف التونسية الدخول إلى الجزائر. لقد تحول هؤلاء في هذه الظروف إلى ما يشبه البعثة الإعلامية؛ تفضح المناكر المرتكبة في الجزائر من طرف الجيش الاستعماري وأعدائه. كانت هذه المقالات تعرف بالثورة، تشهر بالجرائم الفرنسية، تنوّه بجنود جيش التحرير الوطني، تحرض على الالتحاق بالثورة وترد على الدعاية الفرنسية، وتدعو إلى التضامن العالمي مع الثورة الجزائرية.

بالمختصر لم يعد أي صوت يعلو على صوت الثورة الجزائرية إلا بعض الاستثناءات خصوصا المعركة القلمية التي فجرها الجندي خليفة بلانحة حول رمضان، وشارك فيها عدد من الأقلام الجزائرية دفاعا عن الجندي بعد الهجوم الذي تعرض له. وكانت هذه المعركة إحدى المناسبات القليلة التي كشفت لنا - بطريقة ضمنية - عن تطلعات الجزائريين بعد الثورة.

إنه الوعي بالذات، وبالانتماء إلى الأمة وشعب يكافح من أجل حريته، يصبح التصنيف بعده في خانة الجنسية الفرنسية معرة وخيانة لا يقبلها

الجزائريون المقيمون بتونس فتبرؤوا من نعت فرنسي مسلم في أول استقلال تونس ورجوا حكومة الاستقلال الأولى اعتبارهم جزائريين وكفى.

ابتداءً من سنة 1959 نقل الكتابات الجزائرية في الصحف التونسية (خصوصاً في جريدة الصباح). وقد رجحت أن يكون السبب في ذلك ظهور جريدة المجاهد بطريقة أو بأخرى حبطت عزيمته كتاب المقالات وهم يرون المجاهد ناطقاً رسمياً باسم الثورة الجزائرية تؤدي المهمة بدلهم أو ربما لتوزعهم على هياكل الثورة. فالبعض منهم التحق بالجبال والبعض سافر في بعثات جبهة التحرير إلى الخارج لإكمال الدراسة وغيرها من المهمات التي كلفتهم بها الجبهة¹.

الملاحظ أن الصحافة التونسية أدت الأمانة بخدمة القضية الجزائرية إن قبل الثورة أو بعدها. وإن كان قبل الثورة وأكد وادعي للإعجاب والتنويه، لأن سيف الظلم والإرهاب كان مسلطاً على الجميع. لقد وصل في بعض الأحيان وعند محاولة تحديد هوية بعض المقالات غير الممضاة أنه صعب بل استحال علي تحديد نسب المقال، هل هو لتونسي أم لجزائري. وذلك لالتحام الشعبين في الضراء كما في السراء.

¹ لقد حاولت الاستئناس عن هذه النقطة من السيد احمد يزيد باعتباره مسؤولاً عن قطاع الاعلام في الحكومة المؤقتة لكن لم أتلق رداً على الفاكس الذي بعثته له بتاريخ 5 ماي 1999.

الفهرس

7	مقدمة
14	تمهيد
19	الباب الأول: كتابات ما بين 1947 و1955
21	الفصل الأول: الحياة السياسية
21	1. دستور الجزائر لعام 1947 والانتخابات
25	2. مشكلة مشاركة بني ميزاب في المجلس الجزائري
29	3. الاتحاد
33	4. التوجه العربي
38	5. الوحدة المغاربية
42	الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية
42	1. الدعوة لتعليم المرأة
45	2. الزواج ومشكلة الزنا
50	3. حرية المرأة بين معارض ومؤيد
51	4. بعض مظاهر التخلف في المجتمع الجزائري
55	الفصل الثالث: الحياة الدينية والعلمية
55	1. الحياة الطالبية
62	2. الدفاع عن الزيتونة

65	
	3. جمعية العلماء
70	4. الإسلام وتدخل الإدارة الفرنسية في الحياة الدينية للجزائريين
75	
	5. الثقافة والتعليم
79	
	6. تخليد عظماء الجزائر
85	الباب الثاني : كتابات الثورة 1956 - 1962
87	الفصل الأول: بداية الثورة
87	1. أسباب قيام الثورة
91	2. الموقف الجزائري من الاستقلال الداخلي لتونس
95	3. الجالية الجزائرية بتونس يُعيد اندلاع الثورة
99	4. قضية الاعتداء على تجار بني ميزاب
102	الفصل الثاني: تطور الثورة
102	1. القمع الاستعماري
107	2. احتضان الشعب الجزائري للثورة
111	3. الطلبة الجزائريون بتونس أثناء الثورة
116	الفصل الثالث : تنويع الثورة
116	1. الدعاية للثورة
127	2. الدعوات لتأييد الثورة
133	3. تطلعات ما بعد الثورة
138	خاتمة